الفصل الخامس

تحرير أفغانستان

ازدحام مرور السيارات علامة على الرفاهية وهذا ما نجحت حكومتي في العمل على تحقيقه.

حامد قرضاي، الرئيس الذي نصبته الولايات المتحدة على أفغانستان، في العام 2003.

لكابل خطوط مناسيب من الأنقاض تحدد هيئتها بدلاً من الشوارع، وفيها يسكن الناس في مبان منهارة، مثل ضحايا زلزال أرضي ينتظرون الإنقاذ. لا يملكون مصدراً للنور ولا للحرارة، ونيرانهم المنذرة بشر مستطير تشتعل طوال الليل. ولا يكاد أي جدار ينتصب واقفاً وهو لا يحمل ندوباً من عيار كل سلاح تقريباً. والسيارات تتمدد ملقاة مدمرة في دوارات الطرق. وأعمدة الطاقة الكهربائية، التي بنيت من أجل أسطول حديث من حافلات الركاب الكهربائية (الترولي)، ملتوية مثل مشابك الورق، والحافلات مكدسة بعضها فوق بعضها الآخر، تذكر بالأهرامات التي أنشأها الخمير الحمر من السيارات التي لم تبق تستعمل في فجر "العام صفر".*

هناك شعور بالعام صفر في أفغانستان. وعلى طرف كابل، كان وقع خطواتي يرجع الصدى في أرجاء ما كان سابقاً قصر ديلكوشا الكبير، الذي بني في العام

---

* العام صفر: حين نجحت الثورة الفرنسية في عام 1792 اتخذت لنفسها تقويماً جديداً سمّت بموجبه عام نجاحها العام واحد. وحين سيطر الخمير الحمر على كمبوديا في عام 1975 سموه العام الصفر تقليداً لما فعلته الثورة الفرنسية. وبعد استيلاء الخمير الحمر على بنوم بنه سادت أجواء من الرعب لا تقل عن عصر الرعب الذي ساد بعد الثورة الفرنسية. (المترجم)

1910 وفق تصميم مشهور صممه مهندس معماري إنجليزي، وكانت درجات سلالم المبنى الدائرية وأعمدته الكورينثية وحجارة اللوحات الجصية الجدارية من جناحيه ملقاة في خرائب. ومن هيكله الذي يشبه الكهوف، والذي قصف بالقنابل برز أطفال نحفاء كعيدان القصب مثل أشباح صغيرة، ويعرضون بطاقات بريدية مصفرة لما كان يبدو عليه القصر قبل ثلاثين عاماً: مبنى ضخم باذخ في نهاية طريق كأنها شانزيليزيه أفغانية. وتحت مدى بسطة الدرج المهجور كان يوجد دم ولحم لرجلين نسفا بقنبلة في اليوم السابق. من كانا؟ ومن الذي زرع القنبلة؟ في بلد مسترق للقتلة قتلاً جماعياً أو "للقادة المحليين"، مثلما يفضل الأمريكيون أن يسموا أمراء الحرب المجاهدين، يبدو السؤال نفسه غريباً (سريالياً).

على بعد مائة ياردة، كان رجال يتحركون بملابسهم الزرقاء حركة صارمة في رتل أحادي: إنهم مزيلو الألغام. والألغام هنا مثل القمامات، وهي تقتل وتشوه، وهي محسوبة، في كل ساعة من كل يوم. وعبر خط من الأعلام الحمر المرفرفة في سديم ضبابي، مشى شبح رجل، وهو يلوح بذراعيه ويصيح. إنه لاجئ عائد حديثاً من باكستان، وهو مصمم على استصلاح بيته على الرغم من أنه محاط بالألغام. وصاح "إنه حقي!" وقبل يومين من ذلك، قام رجل آخر وعائلته بفعل الشيء نفسه، وجمع الرجال ذوو الملابس الزرقاء بقاياهم في ملاءة.

وبالقرب من ذلك توجد بقايا سينما كابل المشهورة ببنائها الزخرفي الفني الخاص، وفيها يطقطق البناء ويتداعى ويسقط على الأطفال وهم يعلبون في أنقاضه. وهناك ملصقات تحذر من وجود قنابل عنقودية لم تنفجر، "صفراء ومن الولايات المتحدة الأمريكية"، موجودة على مقربة من المكان. وكان الأطفال يطارد بعضهم بعضاً إلى الظلال، وكان يراقبهم فتى دون العشرين برجل اصطناعية، وبوجهه الذي فقد جزءاً منه. فالناس مازالوا يخلطون بين أوعية القنابل العنقودية وبين الصرر الصفراء للإغاثة التي سبق أن ألقتها الطائرات الأمريكية في تشرين الأول/ أكتوبر من العام 2001، بعد أن قام "التحالف" الغازي بإيقاف قوافل الإغاثة العابرة من باكستان.

وسألت شرطياً: "هل يقرأ أحد هذه الملصقات؟"

وأجابني: "هؤلاء لا يحسنون القراءة".

في الوقت الذي يقدر فيه عدد المدنيين الذين قتلوا مباشرة بالقصف والغزو الأمريكيين بعد 11 أيلول/ سبتمبر تقديراً محافظاً، بعدد يراوح بين ألف وثلاثمائة وبين ثمانية آلاف فقد كتب جوناثان ستيل تحقيقاً لجريدة الغارديان يقول فيه: إن ما يصل إلى عشرين ألف أفغاني، "ربما كانوا قد فقدوا حياتهم بنتيجة غير مباشرة، وإن القصف... سبب اقتلاعاً ضخماً للسكان من مواقع سكناهم عن طريق الحث الفوري لمئات من الأفغان على الهرب من بيوتهم. وأوقف القصف إمدادات المعونة التي كانت تقدم إلى ضحايا الجفاف الذين كانوا يعتمدون على إغاثة الطوارئ. واستثار القصف جيشاناً في القتال... أدى إلى هرب المزيد من الناس حتى ذلك الوقت... وهم، أيضاً، ينتمون إلى حساب الموتى"[1].

حين سقطت أول القنابل، تحدث الرئيس بوش إلى ضحاياه من المكتب البيضاوي وقال: "سوف يعرف شعب أفغانستان المضطهد كرم أمريكا. ففي الوقت الذي نضرب فيه الأهداف العسكرية، سوف نقوم أيضاً بإسقاط الطعام، والدواء، والإمدادات للرجال وللنساء وللأطفال الذين يتضورون جوعاً ويعانون في أفغانستان. إن الولايات المتحدة صديقة للشعب الأفغاني". ووعد الرئيس بتكرار خطة مارشال التي تلت "النصر الأخلاقي" للحرب العالمية الثانية.[2]

وفي الأسبوع السابق، في مؤتمر حزب العمال، كان طوني بلير قد قال بطريقة مشهودة لا تنسى: "إلى الشعب الأفغاني، نقدم هذا الالتزام. نحن لن نتراجع... وإذا تغير نظام الطالبان، فسوف نعمل معكم لنتثبت من أن خليفتهم هو حكم يستند إلى قاعدة واسعة، وهو حكم يوحد كل الجماعات العرقية ويقدم طريقة ما للخروج من الفقر الذي يشكل وجودكم البائس"[3].

كل كلمة تفوه بها بوش وبلير كانت زائفة تقريباً. وتصريحاتهما عن الاهتمام كانت أوهاماً قاسية مهدت الطريق لقهر العراق وأفغانستان معاً. ومع تكشف ألغاز

الاحتلال الأنجلو أمريكي للعراق، فقد يثبت، أن الكارثة المنسية في أفغانستان، وهي "النصر" الأول في "الحرب على الإرهاب" تكوِّن دليلاً محسوساً أشد فظاعة وصدماً على العواقب الحقيقية للقوة الاستعمارية المعاصرة.

ومن بين كل الأزمات الإنسانية التي تعيها الذاكرة الحية، فما من بلد أسيء له أكثر مما أسيء إلى أفغانستان، وما من بلد عانى أكثر منها، وما من بلد كان يتلقى عوناً أقل مما تلقت. في العصبة الدولية للضحايا ذوي القيمة وللضحايا من غير ذوي القيمة، الأفغانيون هم أقل الضحايا قيمة. فالبوسنة، وفيها ربع السكان ولكنها احتُضِنَت بصفتها قضية ليبرالية من الغرب، تتلقى 356 دولاراً لكل شخص، أما أفغانستان فتحصل على 42 دولاراً لكل شخص. و3 بالمائة فقط من كل العون الدولي الذي صرف في أفغانستان كان من أجل إعادة الإعمار. ويذهب 84 بالمائة من العون إلى "التحالف" العسكري الذي تقوده الولايات المتحدة. وهذا هو الذي دفع المال اللازم من أجل الغزو، ولتأسيس القواعد العسكرية وتدريب جيش مذعن وتجهيزه.[4]

و"العون" الأجنبي الآخر جهز المكاتب الحديثة التي تقيم فيها 1,025 وكالة للأمم المتحدة و"المنظمات غير الحكومية" الدولية في ضاحية كابل الخاصة فقط، المشهورة بإجاراتها الباهظة، وبسيارات الجيب المكيفة، وبمحلات الطعام المستورد للأجانب فقط. وبمخازن المشروبات الكحولية. والنادي الإيرلندي للأجانب فقط محروس من رجال يحملون بنادق إي كي -47، والموظفون والأفغان أطلقت عليهم أسماء إيرلندية: شين، وكيفن، وجيمي، وجورج.

بعض المنظمات غير الحكومية تقوم بعمل قيّم، وكثير منها لا يفعل ذلك. يصف عاملان بريطانيان في العون هما كرس جونسون وجوليون ليزلي كيف أن منظمة غير حكومية أمريكية تسمى كرييتف أسوشيتس إنترناشيونال إنكوربوريتيد (المشاركون الإبداعيون الدوليون المساهمة)، وهي من دون أي خبرة سابقة في أفغانستان، كسبت عقداً تعليمياً كبيراً بوصفها جزءاً من اتحاد مؤسسات (كونسورتيوم) ليس لديها إلا القليل لتبرزه في ميدان التعليم مقارنة

بالمنظمة المتقدمة الثانية التي رفضت. والمنظمة الأولى، أسوشيتس كرييتف تقوم الآن "بتطوير التعليم" في العراق المحتل في مقابل عقد يمكن أن تكون قيمته 157 مليون دولار. وكما عبر عن ذلك مدير شركة أخرى تقدم عرضاً من أجل شريحة من الفطيرة: "نحن لا نستطيع أن نخسر – والرجال في واشنطون لم يضمنوا لنا أصولنا في هذا المكان وحسب، بل ضمنوا لنا أرباحنا أيضاً"[5].

في شهر كانون الثاني/يناير من العام 2002، وحين كانت طالبان تلوذ بالفرار، اجتمع قادة العالم الثري في طوكيو وتعهدوا بدفع 4,5 بليون دولار إلى أفغانستان على مدى خمس سنوات. وكان هذا المبلغ أقل من نصف المبلغ 10 بلايين دولار الذي صرف على قصف البلاد وغزوها. وبعد ثلاث سنوات، لم يصل منه إلا القليل إلى الحكومة الأفغانية، التي يطير رئيسها المعين حامد قرضاي طيراناً منتظماً إلى واشنطون ليستعطي من أجل المزيد. وما أعلن بعدئذ بصفة "عون جديد لإعادة الإعمار" كان جرة العسل نفسها التي ارتشف منها الأمريكيون المتعددو الجنسيات العقود في أفغانستان والعراق بقيمة زادت عن 8 بلايين دولار. وفي العام 2003، تلقى قرضاي وعداً بالحصول على 50 مليون إضافية أخرى من أوفرسيز برايفيت إنفسمنت كوربوريشن (شركة الاستثمار الخاص وراء البحار)، وهي وكالة حكومية، ولكن على شرط أن يذهب مبلغ 35 مليون دولار إلى إنشاء فندق الحياة في كابل من فئة خمس نجوم.[6]

والأرباح المتوافرة من الفندق، الذي سيكون في معظمه للأجانب، سوف تعود من أفغانستان إلى موطنها. وعلى بعد بضعة مجمعات سكنية، يجري بناء السفارة الأمريكية في كابل بتكلفة 300 مليون دولار، وهو رقم خصصته، بالصدفة، واشنطون وغيرها من "البلدان المانحة" الغنية الأخرى من أجل إعادة إنشاء كل الطرق الرئيسية في أفغانستان، وهي لا تكاد تكون موجودة، ومبلغ 300 مليون دولار سيبنى 50 ميلاً من الطرق فقط. وللإضاءة على الكيفية التي صدرت بها أمريكا "الديمقراطية إلى العالم"، وصف رئيس العون الأمريكي، آندرو ناتسيوس، "العون" بأنه "أداة رئيسية للسياسة الخارجية". وانطلاقاً من رغبته في ألا

يترك أي شك حول ما عناه، قال: "المساعدة الأجنبية تساعد على تطوير الأمم وتحريك انتقالها نحو الأنظمة الديمقراطية واقتصادات السوق، وهي تساعد الأمم على الإعداد من أجل المشاركة في نظام التجارة العولمية ولتصير أسواقاً أفضل للصادرات الأمريكية"[7].

حكومة قرضاي واجهة، اختارتها الولايات المتحدة بيدها و"انتخبت ديمقراطياً" كما ينبغي في انتخابات هزلية في العام 2004، وهي حكومة لا تملك أي سيطرة على الاقتصاد وهي محرومة من وجود ميزانية مناسبة. وقد أخبرني عمر زاخيوال، وهو مستشار لوزير الشؤون القروية، أن الحكومة قد تسلمت أقل من 20 بالمائة من العون الموعود لأفغانستان من "المانحين". وقال: "نحن لا نستطيع أن ندفع حتى الأجور".

وسألته: "كم تملكون من أجل إعادة الإعمار؟"

"لا شيء".

"لا شيء؟"

"حكومة أفغانستان لا تملك أي مال. نقطة على السطر"[8].

ومع ذلك، فإن تجارة الأفيون، التي حظرتها طالبان، هي في أعلى مستوى لها من النشاط. وملايين الدولارات تمر عبر كابل بوصفها نقود مخدرات، والكثير منها يكون الحصول عليه بصفة رشا الاستخبارات المركزية الأمريكية إلى أمراء حرب المافيا الذين يمسكون بالسلطة الحقيقية في "الديمقراطية الجديدة"، كما سماها بوش. هؤلاء هم المجاهدون السابقون الذين كان جيشهم من العصابات قد أنشيء بشكل فعال على أيدي الأمريكيين في الثمانينيات من 1980 ليكون أداة في الحرب الباردة. وفي الوقت الذي كانت إدارة بوش تعد فيه من أجل الهجوم على أفغانستان في أعقاب 11 أيلول/سبتمبر من العام 2001 – على الرغم من كل الدلائل التي تربط الهجوم على مركز التجارة بالمملكة العربية السعودية – فقد اجتمع عملاء الاستخبارات المركزية الأمريكية مع عملائهم القدامى على الحدود مع

باكستان وسلموا لهم ملايين الدولارات نقداً. وكان مسؤول في الاستخبارات المركزية الأمريكية قد أخبر جريدة وول ستريت جورنال بالقول: "كنا نحاول أن نتواصل مع كل قائد استطعنا إليه سبيلاً".

وكان يعني بكلمة "نتواصل" رشوتهم ليتوقفوا عن قتال أحدهم للآخر وليقاتلوا الطالبان بدلاً من ذلك. وفي تاريخه شبه الرسمي يروي بوب وودورد، مراسل الواشنطون بوست، أن الاستخبارات المركزية الأمريكية صرفت 70 مليون دولار في الرشا.[10] ويصف بوب اجتماعاً بين عميل للاستخبارات المركزية الأمريكية معروف باسم "غاري" وبين أمير حرب يسمى أمنيات – مللي فيقول:

وضع غاري ربطة من النقد على الطاولة: 500.000 دولار في عشر رزم بارتفاع قدم واحد من فئة 100 دولار. وكان يعتقد أنها ستكون أكثر تأثيراً من مبلغ 200.000 دولار المعتاد، وأفضل طريقة للقول: نحن هنا، نحن جادون، وها هو المال، ونحن نعلم أنكم بحاجة إليه... ثم يطلب غاري في الحال من قيادة الاستخبارات المركزية الأمريكية مبلغ 10 ملايين دولار نقداً ويستلمها.[11]

سمَّى أمراءُ الحرب أنفسَهم تحالف الشمال، وقاموا هم والقصف الأمريكي بدفع رفاقهم المجاهدين السابقين، الطالبان، إلى الجبال. واليوم، وبغض النظر عن مزاعم حكومة قرضاي، التي لا تسري أوامرها إلى أبعد من بوابات كابل، فإن الطالبان يعودون خلسة. وفي الوقت نفسه، يحكم أمراء حرب الاستخبارات المركزية الأمريكية أفغانستان بالخوف والابتزاز.

وأمير الحرب العميل المفضل لدى أمريكا هو الجنرال رشيد دوستم، وهو زعيم حزبي أوزبكي يحكم إقطاعيته من المدينة الشمالية مزار شريف. وسمعته بالقسوة الوحشية تتضمن ربط أعدائه بالسلاسل تحت سُرَف (جنازير) الدبابات، وهو سيئ السمعة نتيجة حصار كوندوز في شهر تشرين الثاني/نوفمبر من العام 2001، وهو الحصار الذي انتهى في قلعة قذرة، هي قلعة جهانغي، وفيها جُمِع آلاف من أسرى الحرب الطالبان على أيدي رجال دوستم، ثم قصفوا بالقنابل العنقودية من

الطائرات الأمريكية. والذين كتب لهم البقاء على قيد الحياة من الأسرى صُبّ الزيت عليهم وأشعلوا بالنار، أو أطلقت النار عليهم وأيديهم مصفدة خلف ظهورهم. وبحسب ما جاء في فيلم وثائقي أخرجه مخرج هيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي) السابق جامي دوران، فإن ثلاثة آلاف أسير، من أصل ثمانية آلاف أسير كانوا قد استسلموا، اختنقوا أو ماتوا من جروحهم في حاويات مغلقة، ودفنت جثثهم في قبور جماعية. ويقول أحد جنود دوستم في فيلم دوران: "كنت شاهداً حين كسر جندي أمريكي عنق أحد السجناء وصب حمضاً على آخرين. لقد فعل الأمريكيون ما شاؤوا. ولم نكن نحن نملك السلطة لإيقافهم"[12].

وقد كتبت إيزابيل هيلتون، وهي كاتبة عمود في الغارديان:

من المؤكد أن المعنى الذي تدور حوله الحضارة هي أنها لا تتحدر باستخفاف إلى الرعب والبربرية... فنحن نسمع، أن لدى الأفغان نزعة نحو الهمجية وأنه سيكون من غير المعقول أن نتوقع حرباً في أفغانستان يتم القتال فيها وفق قواعد كوينزبري*. ولكن حرب من هذه؟... هل كان [الأمريكيون] يقاتلون وفقاً لقواعد دوستم أم وفقاً لقواعدهم؟ أو أننا لسنا بعد الآن نهتم بالتمييز؟[13]

لم يتغير أي شيء: لم تتغير القنابل العنقودية، التي سبق أن جربت في فيتنام، ولم يتغير العملاء البرابرة، الذين يعود نسب أسلافهم إلى البريطانيين في أفغانستان، ولم تتغير الصدمة الدائمة الممتدة إلى الضمير الليبرالي حين أجبر على الاعتراف بأن "الرعب والبربرية" هما ممارسة معيارية تماماً في جانبنا "نحن".

ومنذ ذلك الوقت أعلن الجنرال دوستم نفسه ركناً من أركان "الديمقراطية الجديدة"، لا بل إنه يترشح للرئاسة في انتخابات العام 2004. وقوته هي المال، ومعظمه دولارات، وقواته العسكرية، المنتشرة في نقاط التفتيش الحدودية مع أوزبكستان، تنهب ثروة عوائد الجمارك. لقد أضاف بركة سباحة داخل المنزل

* إشارة إلى قواعد الملاكمة التي وضعها المركيز كوينزبري (1800 – 1900)، مثل لبس القفازات، وتخصيص 3 دقائق للجولة، والعد 10 للاعب الذي سقط...إلخ. (المترجم)

على الطراز الروماني، وهي كاملة مع الثريات، إلى واحد من قصوره، وقد دشن بركة السباحة هذه بالسباحة فيها مع رفاقه من قوات العمليات الخاصة الأمريكية، المعروفين باسم "فريق النمر 02".

إن أفغانستان اليوم هي ما دعته وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية في أيامها الفيتنامية "الوهم الكبير" "للقضية" الأمريكية. وبحسب ما يقوله جورج دبليو. بوش، فإن البلاد قد دخلت في "عصر جديد من الأمل". وبالنسبة إلى قلة من الأفغان، هناك بعض الحقيقة في هذا الكلام، في كابل، فإن حريات معينة أنكرتها الطالبان قد عادت مؤقتاً: ومنها عزف الموسيقى والرياضة البدنية، وإعادة فتح مدارس البنات، مع دستور جديد يعطي النساء حقوقاً أساسية مثل حق الاقتراع. وفي انتخابات العام 2004، فإن أول صوت اقترع أمام آلات تصوير التلفاز كان من سيدة في التاسعة عشرة من عمرها، وظهرت صور النساء وهن يصطففن لتسجيل أصواتهن على الصفحات الأولى من الصحف الأمريكية. وزعمت حكومة قرضاي أن 40 بالمائة من المقترعين كانوا من النساء. وفي الحقيقة، مثلما روى المراقبون، بلغ الرقم في انخفاضه إلى 10 بالمائة، والكثيرات من النساء اللواتي سجلن منعن من الاقتراع.[14]

وفي انتخابات العام 2005 – للمجلس النيابي (البرلمان) وللمجالس المحلية – سيطرت المهزلة. فبعد أن حظر قرضاي على الأحزاب السياسية المشاركة، فإنه بذلك خفض الاقتراع إلى منافسة في الشعبية بين 5800 شخص. وأكثر من نصف المقاعد في المجلس الأدنى ذهب إلى أمراء الحرب، وإلى الجهاديين وزعماء الطالبان السابقين، وكثيرون منهم في حالة حرب أحدهم مع الآخر. وشملوا أمثال الحاج مولوي قلم الدين، رئيس إدارة طالبان للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومصدر أقسى أوامر طالبان، مثل إغلاق مدارس البنات، ورجم الزناة المحصنين حتى الموت. وفي أثناء الحملة الانتخابية، تعرضت المرشحات للتخويف وهوجمن، وفي مقاطعة هلمند، وضعت ملصقات تعلن عن جائزة قدرها 4000 دولار لمن يقتلهن. ويقال إن الفوضى كانت لضمان أن يحافظ الأمريكيون على السيطرة النهائية. ولكنها بدلاً من ذلك تضمن أن يكونوا هم الملومين وأن تجعلهم الأعداء الجدد.

بالنسبة إلى 90 بالمائة من السكان الذين يعيشون خارج نطاق المدن، ليس هناك أي تحرير. وبالنسبة إلى كثيرين، يبدو الأمر وكأن طالبان لم ترحل أبداً، وبالنسبة إلى بعضهم، فإنهم يفتقدون شيوخ طالبان في اللباس الأسود المتطهرين للغاية والذين عاقبوا قطع الطرق، والاغتصاب والقتل. فمن بعدهم، قام أمراء الحرب "بشكل أساسي بخطف البلد"، كما تقول جماعة حقوق الإنسان (هيومان رايتس ووتش). فالجنود والشرطة يخطفون القرويين ويتمتعون بحصانة يفلتون بها من العقاب ويمسكون بهم من أجل دفع الفدية في سجون غير رسمية. وأما اغتصاب النساء، والفتيات، والصبيان، والنهب المسلح والقتل العشوائي فهي جرائم منتشرة على نطاق واسع. وكثير من مدارس البنات تحرق حالما تفتح. وتروي جماعة حقوق الإنسان في تقاريرها: "نظراً إلى أن الجنود يستهدفون النساء والفتيات فإن الكثيرات منهن يبقين في بيوتهن، وهو ما يجعل من المستحيل عليهن أن يداومن في المدرسة [أو] أن يذهبن إلى العمل".

في المدينة الغربية هيرات، تعتقل النساء إذا سقن سيارة، فهن ممنوعات من السفر مع رجل غير قريب لهن، ولو كان سائق سيارة أجرة، ويخضعن "لاختبار العفة" إذا قبض عليهن، مبدّدين بذلك خدمات طبية ثمينة، وهي خدمات تقول عنها جماعة حقوق الإنسان (هيومان رايتس ووتش) "لا تكاد النساء والفتيات يملكن أي وصول إليها، وخصوصاً في هيرات، التي تلد فيها نسبة أقل من 1 بالمائة من النساء على يد قابلة مدربة". وبحسب ما تقوله اليونيسيف (صندوق الطفولة في الأمم المتحدة)، فإن نسبة الوفيات في الأمهات الأفغانيات اللواتي يلدن هي أعلى نسبة في العالم. ويحظر على الرجال تعليم النساء والبنات. ولا يسمح للفتيات وللفتيان أن يكونوا في المباني المدرسية في الوقت نفسه.[15] وحتى العام 2004، كانت هيرات تحكم من أمير الحرب إسماعيل خان، الذي وصفه وزير الدفاع دونالد رامسفيلد بأنه "رجل مُعجِبٌ... ومفكّرٌ ومُقدَّر وواثق بنفسه"[16].

قال جورج دبليو. بوش في خطابه عن حالة الاتحاد في العام 2002، "في آخر مرة تقابلنا في هذه الحجرة كانت أمهات أفغانستان وبناتها أسيرات في بيوتهن،

ممنوعات من العمل أو الذهاب إلى المدرسة. أما اليوم، فالنساء حرَّات، وهن جزء من حكومة أفغانستان الجديدة. ونحن نرحب بالوزيرة الجديدة لشؤون النساء، الدكتورة سيما سامار"[17].

سيدة نحيفة، متوسطة العمر تضع إشارباً على رأسها وقفت واستقبلت الترحيب الحماسي المنسق الإيقاع. وهي طبيبة درست الطب بعد أن تزوجت في الثامنة عشرة من عمرها، وكانت نشيطة في المقاومة في أثناء الغزو السوفيتي. وحين قبض على زوجها في العام 1984، ولم يُرَ من بعد ذلك مطلقاً، فرت هي وابنها الصغير إلى باكستان، وهناك أسست أول مستشفى للنساء اللاجئات الممنوعات من زيارة الأطباء. وصارت ناقدة شديدة للحجاب وللبرقع وكشفت أن الكثيرات من النساء كن يعانين من لين العظام، وهو تلين في العظام ينجم عن التغذية غير الكافية والتعرض القليل لضوء الشمس، وهو نتيجة لسجن النساء في بيوتهن. وعادت بجرأة إلى أفغانستان، وأنشأت أربعة مستشفيات وعشرة مستوصفات في المناطق الريفية وأدارت برامج للتعليم ودورات تدريب طبية لعشرين ألف طالبة، وكان ذلك في الغالب سراً. لا بل حين أغلق الطالبان اثنين من مستشفياتها، فإنهم عجزوا عن متابعة إسكاتها.

ولكن استخلاص بوش لها كان اختياراً قصير الحياة. فما إن تلاشى الهتاف في المجلس حتى كانت قد لُطِّخت بتهمة باطلة بالتجديف وأجبرت على الخروج من وزارة قرضاي الانتقالية. فأمراء الحرب لم يكونوا يتسامحون ولو بإشارة إلى تحرير المرأة. واليوم، تعيش الدكتور سيما سامار في كابل، في خوف مقيم على حياتها. ولديها حارسان شخصيان مخيفان مسلحان ببنادق آلية، واحد منهما يقف عند بوابتها، والآخر عند باب مكتبها. وهي تسافر بسرعة في عربة مقفلة مظللة معتمة. وقد قالت لي: "طوال السنوات الثلاث والعشرين الماضية، لم أكن آمنة، ولكني لم أكن أبداً مختبئة أو أسافر مع مسلحين، وهو ما يجب أن أعمله الآن... لم يبق هناك أي قانون رسمي يوقف النساء عن الذهاب إلى المدارس والعمل، وهناك قانون [جديد] عن نظام الملابس، ولكن الحقيقة الواقعة هي أنه لم يكن هناك، تحت حكم الطالبان نفسه، ضغط على النساء في المناطق الريفية مثل الموجود عليهن الآن"[18].

التمييز العنصري بين الجنسين قد يكون انتهى قانونياً، ولكن بالنسة إلى ما يصل إلى 90 بالمائة من النساء الأفغانيات، فإن "الإصلاحات" على الورق هي إصلاحات بلا معنى بمثل ما هي إشارة بوش إلى بطلهم. فالبرقع يبقى موجوداً في كل مكان. وكما تقول سيما سامار، فإن محنة النساء الريفيات هي في الغالب أكثر يأساً الآن، وذلك على خلاف الطالبان، الذين عاقبوا الجرائم المقترفة ضد النساء، فإن أمراء الحرب الآن هم الذين يقترفون هذه الجرائم مع وجود "حصانة تعفيهم بمعدل كبير"، بناء على ما تقوله منظمة العفو الدولية.[19]

في إحدى الأمسيات، عند مصنع أحذية مقصوف بالقنابل في كابل الغربية، وجدت سكان قريتين مجتمعين يجثمون على أرضية مكشوفة من دون إنارة ومع صنبور واحد يصب الماء قليلاً كالقطرات. وكانوا كأنهم مجتمع مختبىء، ومحروسون من كل نقطة دخول برجل عجوز ثابت، فالشباب كانوا قد اختطفوا على أيدي "القادة" ليقاتلوا مع القوات العسكرية. والأطفال يجلسون القرفصاء حول النيران المفتوحة على متاريس متداعية: في اليوم السابق، سقط طفل ومات، وفي اليوم الذي كنت فيه هناك، سقط طفل آخر وأصيب اصابة بالغة. ووجبة الطعام لهم هي الخبز المغموس في الشاي. وعيونهم التي تشبه عيون البوم هي عيون اللاجئين المذعورين في أرضهم الخاصة بهم. لقد سبق أن هربوا من بيوتهم، وشرحوا أن ذلك كان لأن أمراء الحرب نهبوهم، وخطفوا زوجاتهم وبناتهم وأولادهم، ويقومون باغتصابهم والاحتفاظ بهم لدفع الفدية. وأشاروا إلى امرأة تجلس القرفصاء مثل طائر مجروح.

وقال رجل عجوز: "مغتصَبة".

"ممن؟"

"قائد... أخذ عشر نساء من قريتنا".

"ماذا سيحدث لها؟"

"نحن نراقبها، ولكنها قد تقتل نفسها".

"هل حدث هذا تحت حكم الطالبان؟"

"لا. لم نكن نملك أي شيء، ولا حقوق، ولكن بيوتنا كانت مصونة، والطرق مأمونة"[20].

وقد عزز مارينا هذا القول. و"مارينا" هو الاسم الرمزي لشخصية قائدة من راوا* وهي الرابطة الثورية للنساء الأفغانيات، وهي التي كانت منذ العام 1977 قد نبهت العالم إلى معاناة النساء الأفغانيات. ونساء راوا مازلن يسافرن سراً في كل أنحاء البلاد، مع آلات التصوير المخبأة تحت الملابس الواسعة. وفي أثناء حكم الطالبان، صورت العاملات في راوا تنفيذاً رسمياً للأحكام وفظاعات أخرى، وهربن شريط الصور (الفيديو) إلى الغرب. وقالت مارينا: "لقد أخذناه إلى كل الجماعات الرئيسية من وسائل الإعلام. إلى رويترز، وإلى إي بي سي، وإلى أستراليا على سبيل المثال، وقالوا لنا: (نعم، إنه حسن جداً، ولكننا لا نستطيع أن نعرضه لأنه سيكون صادماً جداً للناس في الغرب)".

كان هذا قبل 11 أيلول/سبتمبر من العام 2001، حين اكتشف جورج دبليو. بوش ووسائل الإعلام الإمريكية نساء أفغانستان. وقالت مارينا: "صار الطالبان فجأة العدو الرسمي لأمريكا. نعم، لقد كانوا يضطهدون النساء، ولكنهم لم يكونوا فريدين في هذا، ونحن أبدينا سخطنا ضد الصمت في الغرب بشأن الطبيعة الوحشية لأمراء الحرب المدعومين من الغرب، والذين لا يختلفون أي اختلاف عن سابقيهم. ومن بعض النواحي، كنا أكثر أمنا تحت حكم الطالبان. كنت تستطيع أن تعبر أفغانستان في البر وتشعر أنك آمن. أما الآن، فإنك إن فعلت تحمل حياتك على راحتيك".

وتقابلنا خفية، وكانت تلبس خماراً لتخفي هويتها. وقالت لي وهي تفتح ملفاً سميكاً: "هذا هو ما يحدث في الريف تحت هؤلاء المدعوين قادة. في شهر آذار/مارس، قتلت فتاتان ذهبتا إلى المدرسة من دون البرقع الفضفاض ووضعت جثتاهما أمام بيتيهما. وفي الشهر الماضي، قفزت خمس وثلاثون امرأة في نهر مع

* Rawa.

أطفالهن وماتوا، وكان ذلك لإنقاذ أنفسهن فقط من القادة في هياج الاغتصاب. هذا ليس أمراً غير مألوف، إنها أفغانستان اليوم، فالطالبان وأمراء الحرب من التحالف الشمالي وجهان للعملة نفسها. ولو أن أمريكا لم تطور أمراء الحرب هؤلاء وتقويهم، لما كان أسامة بن لادن وكل قوات الأصوليين في أفغانستان في أثناء الغزو الروسي، ولما هاجموا السيد في 11 أيلول/سبتمبر من العام 2001"[21].

في ذروة الإمبراطورية البريطانية، في العام 1898، كتب اللورد كيرزون، نائب الملك في الهند يقول: "أعترف أن [البلدان] قطعٌ على رقعة الشطرنج، يجري اللعب عليها حتى النهاية لعبة كبيرة من أجل الهيمنة على العالم"[22]. وكان بهذا يشير إلى أفغانستان بشكل خاص، وهي التي كان البريطانيون ينظرون إلى طرق تجارتها الإستراتيجية بصفتها حيوية لإمساكهم بالسيطرة على آسيا الوسطى وحوض بحر قزوين. إن القسوة التي لا تعرف الرحمة و"الأوهام الكبيرة" في "اللعبة الكبيرة" محفورة في صفحات التاريخ الحديث لأفغانستان، وهي تخبرنا بالكثير عن أصول "الحرب على الإرهاب". إن الفصل السري هو دعم أمريكا وبريطانيا للجماعات القبلية المعروفة باسم المجاهدين والتواطؤ على الغش مع هذه الجماعات، والدور الحاسم الذي لعبته في شن الجهاد والتحريض عليه، وهو الأمر الذي أدى إلى الهجوم على "السيد" في 11 أيلول/سبتمبر من العام 2001.

إن المجاهدين الأفغان – الطالبان والقاعدة – أنشِئوا في الحقيقة الفعلية على أيدي وكالة الإستخبارات المركزية، ومعادلتها الباكستانية، خدمات الاستخبارات الداخلية (آي اس آي)، والبريطانية م 16. وكان زبغنيو برجينسكي، الذي كان مستشار الأمن القومي للرئيس كارتر في أواخر السبعينيات من 1970، قد اعترف بذلك، وكشف عن التعليمات السرية للرئيس كارتر لتمويل المجاهدين وتعاون أمريكا "مع السعوديين، والمصريين، والبريطانيين، والصينيين [لبدء] توفير الأسلحة للمجاهدين"[23]. وكان برجينسكي، الذي ينظر إليه في واشنطون بوصفه المعلم في مسألة السلام الأمريكي، يعتقد أن حركات التحرير بعد الاستعمار ومكاسبها في كل أنحاء "العالم الثالث" مثلت تحدياً للولايات المتحدة، كما استبان ذلك عملياً

بالإذلال الحديث لأمريكا في فيتنام. وزيادة على ما تقدم، فإن أنظمة الحكم الأنجلو أمريكية العميلة في الشرق الأوسط والخليج، وبشكل بارز في إيران تحت حكم الشاه، كانت أنظمة معرضة للخطر من القوات المتجمعة للتمرد.

وكانت المشكلة الفورية، على كل حال، هي مجيء أول حكومة علمانية تحديثية إلى السلطة في أفغانستان، وهي الحكومة التي وعدت بإصلاحات اجتماعية لم يسمع بها من قبل. وقد شكل هذه الحكومة حزب الشعب الديمقراطي لأفغانستان، الذي كان قد عارض الحكم المطلق للملك ظاهر شاه، وقام بالتعاون مع ضباط عسكريين تقدميين بقلب نظام حكم ابن عم الملك، وهو محمد داوود، في العام 1978. وروت نيويورك تايمز، أن معظم الصحافيين في كابل، وجدوا أن "كل أفغاني قابلوه تقريباً قال [إنهم كانوا] فرحين بالانقلاب"[24].

وربما كان هذا صحيحاً في المدن، وأما في الريف فإن الانقلاب قد أثار مقاومة مريرة من المسلمين التقليديين، وعلى وجه الخصوص حين لخصت الحكومة برنامج إصلاح احتوى على إلغاء الاقطاع، وعلى حرية الدين وعلى حقوق متساوية للنساء. كانت التغييرات جذرية (راديكالية) جداً إلى الدرجة التي ما زالت معها باقية حية في ذكريات أولئك الذين كانوا المستفيدين منها. وتسترجع سيرا نوراني، وهي جراحة هربت من الطالبان في سبتمبر 2001، وتقول:

كانت كل فتاة تستطيع أن تذهب إلى المدرسة الثانوية أو إلى الجامعة. وكنا نستطيع أن نذهب إلى المكان الذي كنا نريد الذهاب إليه ونلبس ما أحببنا... وكان من عادتنا أن نذهب إلى المقاهي ودور الخيالة (السينما) لنشاهد آخر الأفلام الهندية في يوم الجمعة... ولكن ذلك بدأ يبور ويخفق حين بدأ المجاهدون يكسبون... كان من عادتهم أن يقتلوا المعلمين وأن يحرقوا المدارس... لقد كان مضحكاً ومحزناً أن نفكر في أن هؤلاء المجاهدين هم الناس الذين كان الغرب يساندهم.[25]

وبالنسبة إلى واشنطون كانت المشكلة مع حكومة حزب الشعب الديمقراطي هي أنها كانت حكومة مدعومة من الاتحاد السوفيتي. وبناء على حث

برجينسكي، خول الرئيس كارتر، من دون أن يكون ذلك معروفاً للرأي العام الأمريكي ولا لمجلس الشيوخ، بصرف 500 مليون دولار لتمويل وتسليح المجاهدين: وفي الواقع، لإنشاء ما سيصفه الأمريكون الآن بأنه منظمة إرهابية. وكان الهدف هو إطاحة الحكومة الأفغانية وجر الاتحاد السوفيتي إلى أفغانستان.

وفي مقابلة أجريت مع برجينسكي في 1998، قال:

بحسب الرأي الرسمي للتاريخ، فإن عون وكالة الاستخبارات المركزية للمجاهدين بدأ في أثناء العام 1980، أي، بعد أن غزا الاتحاد السوفيتي أفغانستان في 24 ديسمبر من العام 1979. ولكن الحقيقة الواقعة، التي استمرت محروسة سراً حتى الآن، هي خلاف ذلك بشكل كامل. وفي الحقيقة، كان ذلك في 3 تموز/يوليو من العام 1979 حين وقع الرئيس كارتر أول التعليمات من أجل تقديم العون السري لخصوم نظام الحكم الموالي للسوفييت في كابل. وفي ذلك اليوم نفسه، كتبت ملاحظة إلى الرئيس شرحت له فيها رأيي في أن هذا العون سيؤدي إلى استفزاز التدخل العسكري السوفيتي... نحن لم ندفع الروس إلى التدخل، ولكننا وعن معرفة زدنا احتمال قيامهم بذلك.

وسئل برجينسكي إن كان شعر بأي أسف، بعد أن رأى العواقب. فأجاب: "أسف علامَ؟"

العملية السرية كانت فكرة رائعة. لقد كان لها الأثر في استدراج الروس إلى الفخ الأفغاني... وفي اليوم الذي عبر فيه السوفييت رسمياً الحدود، كتبت إلى الرئيس كارتر أقول: "نحن نملك الآن الفرصة لنعطي الاتحاد السوفيتي حربه الفييتنامية". وفي الواقع، طوال عشر سنوات تقريباً، كان على موسكو أن تنفذ نزاعاً سبّب لها كسر الروح المعنوية وجلب عليها في النهاية تفتيت الإمبراطورية السوفيتية.[26]

وطوال سبعة عشر عاماً، نمّت الولايات المتحدة عمداً تطرفاً تعلن ضده لاحقاً "الحرب على الإرهاب". وقد كتب نافيذ مصدق أحمد في كتابه الحرب على

الحقيقة: 11/9 والتزييف العمد للمعلومات وتشريح الإرهاب يقول: الأمر "المركزي للعملية التي رعتها الولايات المتحدة"،

هي المحاولة لصنع إيديولوجية متطرفة دينية عن طريق خلط التقاليد الإقطاعية الأفغانية المحلية مع البلاغة الإسلامية... والإيديولوجية المتطرفة الدينية "الجهادية" التي تمّت تنميتها في برامج التدريب التي رعتها وكالة الاستخبارات المركزية كانت إيديولوجية قد تخلّلتها الأعراف القبلية، وهي تبعث على ظهور نظام لقيم الحرب مشوه تشويهاً متميزاً ومكسو برطانة "إسلامية"... ومن بين مجموعة السياسات المصممة لتوليد المستوى المرغوب من التطرف، مولت الولايات المتحدة – في سلسلة من المبالغ تصل إلى ملايين الدولارات – إنتاج الكتب المدرسية في أفغانستان وتوزيعها، وهي كتب تروج القتل والتعصب.[27]

هذه الكتب المدرسية الأولية، كما كشفت عن ذلك الواشنطون بوست في العام 2002، "كانت مليئة بالحديث عن الجهاد وأبرزت رسومات للمدافع، وللرصاص، وللجنود وللألغام. لقد خدمت تلك الكتب منذ ذلك الوقت بصفتها لب منهج النظام المدرسي الأفغاني. لا بل إن طالبان استخدمت الكتب المنتجة أمريكياً". وبحسب ما قاله مسؤولون أمريكيون صريحون حياديون فإن الكتب المدرسية "غمست جيلاً في العنف"[28].

لقد صبت الإدارات الأمريكية 4 بلايين دولار في جيوب بعض أشد المتعصبين في العالم قسوةً وحشيةً. رجال من أمثال قلب الدين حكمتيار تسلموا عشرات الملايين من دولارات وكالة الاستخبارات المركزية. وكان اختصاص حكمتيار هو تهريب الأفيون والتحرش بالنساء اللواتي رفضن أن يلبسن الخمار. وحين دعي إلى لندن في العام 1986، أثنت عليه رئيسة الوزراء تاتشر بوصفه "مقاتلاً في سبيل الحرية". وبعد سقوط حكومة حزب الشعب الديمقراطي لأفغانستان في العام 1992، هاجم أمراء الحرب المجاهدون كابل بضراوة على قدر من الوحشية قتلت ما يقدر بخمسين ألف نسمة. وروت جماعة حقوق الإنسان (هيومان رايتس ووتش) أنه "في العام 1994 وحده، قُتل ما يقدرون أنه 25.000 نسمة في كابل، معظمهم من

المدنيين، في هجمات صواريخ ومدفعية. وثلث المدينة تحول إلى كوم من الأنقاض"[29]. وقام حكمتيار، وكان أمير الحرب المفضل عند الغرب في ذلك الوقت، بإمطار كابل بالصواريخ التي زوده بها الأمريكيون، وقتل ألفي نسمة في يومين، إلى أن وافقت الفئات الأخرى على جعله رئيساً للوزراء.

وكانت لعبة برجينسكي، "اللعبة الكبيرة" قد توافقت مع طموح الدكتاتور الباكستاني الجنرال ضياء الحق، للهيمنة على المنطقة. وفي العام 1986، وافق مدير وكالة الاستخبارات المركزية وليام كيسي على خطة قدمتها وكالة الاستخبارات الباكستانية، خدمات الاستخبارات الداخلية، لتجنيد أناس من جميع أنحاء العالم للالتحاق بالجهاد الأفغاني. وتم تدريب حوالي مائة ألف مقاتل إسلامي في باكستان بين عامي 1982 و1992، وهؤلاء كانوا هم الطالبان، التي تعني الطلاب. وكانت معسكرات المجاهدين تدار على أيدي وكالة الاستخبارات المركزية والبريطانية ام 16، مع قيام قوات خاصة بريطانية، وهي الخدمة الجوية الخاصة، بتدريب القاعدة المستقبلية ومقاتلي طالبان على صنع القنابل وعلى الفنون السوداء الأخرى. وفي الولايات المتحدة، تم تجنيد العاملين في وكالة الاستخبارات المركزية الذين سيلتحقون في نهاية الأمر مع طالبان ومع أسامة بن لادن في كلية إسلامية في بروكلين، في نيويورك – على مرآى من البرجين – وتلقوا تدريباً شبه عسكري في معسكر وكالة الاستخبارات المركزية في فرجينيا. وسميت هذه العملية بالاسم الرمزي عملية الإعصار.

وسوء سمعة أسامة بن لادن كانت إنتاج هذه العملية. ففي أفغانستان، كتب جون كولي في حروب غير مقدسة: أفغانستان وأمريكا والإرهاب الدولي، إنه عمل

مع الموافقة الكاملة من نظام الحكم السعودي ووكالة الاستخبارات المركزية... لقد أحضر المهندسين من شركة والده ومعدات الإنشاءات الثقيلة لبناء الطرق والمستودعات للمجاهدين. وفي العام 1986، ساعد في بناء مجمع نفق مولته وكالة الاستخبارات المركزية، ليكون مستودع تخزين سلاح كبير، ومنشأة تدريبية ومركزاً طبياً للمجاهدين، في منطقة عميقة تحت الجبال بالقرب من حدود

باكستان... وأعطت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية أسامة (بن لادن) الزمام الكامل في أفغانستان، مثلما أعطاه ذلك جنرالات استخبارات باكستان.[30]

وبحسب ما قاله مايكل سبرنغمان، الرئيس السابق لمكتب التأشيرة في جدة، كانت السياسة هي "إحضار المجندين الذين جمعهم أسامة بن لادن، إلى الولايات المتحدة لتلقي التدريب الإرهابي من وكالة الاستخبارات المركزية"[31].

وقد كتب نافيذ أحمد يقول إن عملية الإعصار:

زودت وكالة الاستخبارات المركزية بالقدرة على تجنيد الجماعات الإرهابية في كل أنحاء العالم الإسلامي، وتمويل تلك الجماعات وتدريبها. وكانت الغاية من هذه السياسات هي زعزعة استقرار الحركات القومية والشيوعية التي هددت المصالح الأمريكية... وهكذا فقد تم حشد المتطرفين في باكستان على أيدي وكالة الاستخبارات المركزية بالمشاركة مع السعوديين لنشر الطوائف المتطرفة في أفغانستان، وباكستان، والجزائر، واليمن، وإندونيسيا، والفلبين وغيرها من البلدان. وفي الوقت نفسه، فإن مراكز مالية غير قانونية متضافرة مع هذه الأخيرة تأسست في ماليزيا، ومدغشقر، وجنوب إفريقية، ونيجيريا، وأمريكا اللاتينية، وسويسرا، والمملكة المتحدة، وتركستان وفي غيرها من الدول.[32]

في أثناء هجوم حلف الأطلسي (الناتو) على صربيا في العام 1999، التحق مقاتلو القاعدة بجيش تحرير كوسوفو وقاتلوا إلى جانبه، وكان ذلك الجيش أيضاً ممولاً ومسلحاً من الولايات المتحدة – ومن القاعدة. وكانت الفريسة الطريدة لإدارة كلينتون آنئذ هو سلوبودان ميلوسوفيتش وكانت الغاية التي تتغياها الولايات المتحدة هي التمزيق النهائي ليوغوسلافيا "الاشتراكية" المتعددة الأعراق. وهذا ما تم إنجازه على أيدي العشيرين الصابرين على العناء: السياسة الخارجية الأمريكية (القصف بالقنابل) و"الإرهاب الإسلامي". مثل هذه المفارقة الساخرة المهمة التي ساعدت على تفسير صعود الجهاديين، غابت عن نظر وسائل الإعلام التي روت "تحرير" كوسوفو.

ويكتب برجينسكي في كتابه في العام 1997، وهو رقعة الشطرنج العظيمة: الأولية الأمريكية وأوامرها الجغراستراتيجية، ويقول: "منذ أن بدأت القارات بالتفاعل سياسياً، منذ ما يقرب من 500 سنة، كانت أوراسيا هي مركز قوة العالم"[33]. ويعرف برجينسكي أوراسيا بأنها كل الأرض الواقعة إلى الشرق من ألمانيا وبولندا، والممتدة عبر روسيا والصين إلى المحيط الهادىء ومن جملتها الشرق الأوسط ومعظم شبه القارة الهندية. والمفتاح إلى السيطرة على هذه المساحة الشاسعة من العالم هو آسيا الوسطى. فالهيمنة على تركمانستان، وأزبكستان، وطاجيكستان، وقيرغيزستان لا تضمن فقط مصادر جديدة للطاقة وثروة معدنية، بل هي أيضاً "مركز حراسة" للسيطرة الأمريكية على نفط الخليج الفارسي.[34]

ويقول برجينسكي إن الأولية الأولى قد تحققت. وهذه هي الإخضاع الاقتصادي للقوة الكبيرة السابقة. فحالما انهار الاتحاد السوفيتي، نهبت الولايات المتحدة 300 بليون دولار تقريباً في أصول روسية، وزعزعت بذلك استقرار العملة وضمنت أن روسيا التي أُضعِفت لن يكون لها خيار سوى النظر غرباً إلى أوروبة من أجل الانتعاش الاقتصادي والسياسي، أكثر من النظر جنوباً إلى آسيا الوسطى. وما يدعوه برجينسكي "حروباً محلية بصفتها ردود فعل على الإرهاب"، من مثل غزو أفغانستان، هي بداية لنزاع نهائي يقود على نحو لا يرحم إلى حل الحكومات الوطنية والهيمنة على العالم من طرف الولايات المتحدة. الدول الأمم سوف تدمج في "النظام الجديد" الذي تسيطر عليه سيطرة منفردة المصالح الاقتصادية حسبما تمليها المصارف الدولية، والشركات الكبيرة والنخب الحاكمة المهتمة بصيانة قوتها (بالتلاعب وبالحرب). ويكتب بريجينسكي "ولنضعها في مصطلحات تنصت باهتمام إلى الماضي إلى عصر أكثر الإمبراطوريات القديمة وحشية، فإن الأوامر العظيمة للجغراستراتيجية الاستعمارية هي لمنع الصدام ولإدامة الاعتماد الأمني بين الأتباع، ولإبقاء دافعي الجزية سلبيي الانقياد ومحميين ولمنع البرابرة من الاتحاد معاً"[35].

وبعد أن أنعم النظر في رماد الاتحاد السوفيتي الذي ساعد على تدميره، وفي الجهاد الإسلامي الذي ولده والإرهاب الذي سانده، قال بريجينسكي وهو يستغرق

في التفكير: هل كان مهماً أن هذا قد أوجد "قلة من المسلمين المستَفزين؟" وفي 11 أيلول/سبتمبر من العام 2001، "قلة مستفزَّة من المسلمين" قدمت الجواب. وحين قابلت بريجينسكي في واشنطون في العام 2003، سألته إن كان قد أسف من العواقب. غضب جداً ولم يجب.

إن الإمكانات الكامنة من احتياطيات النفط والغاز لحوض بحر قزوين قد أثارت الاستعماريين منذ اكتشاف النفط هناك في نهاية القرن التاسع عشر. ولم تكن أمريكا والقوى الأوروبية فقط هي التي أرادت حقول النفط القزويني. إن هتلر، في غزوه لروسيا، وقبل أن ينفد الوقود منه ويهزم أمام ستالينغراد، كان قد خطط "لأخذ الجائزة المنقِذة من المصادر القزوينية، ويندفع بعدئذ جنوباً من أجل الجائزة الكبرى وهي من فارس والعراق"[37]. وبالنسبة إلى الغرب، فإن الاتحاد السوفيتي قطع الطريق إلى بحر قزوين، البحر الداخلي الشاسع الذي قيل عنه، ربما قولاً متفائلاً، بأنه يحتوي على ثلث نفط العالم وغازه.

ومع ذهاب الاتحاد السوفيتي، آلت الهيمنة في "اللعبة العظيمة" و"رقعة الشطرنج" الخاصة بها إلى إدارة بل كلينتون. وصرح وزير الطاقة بل ريتشاردسون، أن الجمهوريات السوفيتية السابقة في آسيا الوسطى هي "كلها حول أمن طاقة أمريكا. ونحن نود أن نراها معتمدة على الاستثمارات التجارية والسياسية الغربية في بحر قزوين، ومن المهم جداً لنا أن تأتي خريطة أنبوب النفط والسياسات المتصلة به في النتيجة على الوجه الصحيح"[38].

وما كان يعنيه هو أن نفط المنطقة وغازها سيكون بلا قيمة من دون الوسائل اللازمة لحمله إلى موانئ المياه العميقة. كان هناك ثلاثة مسارات يمكن لخط الأنابيب المتوجه إلى الغرب أن يسلكها وهي: عبر روسيا، أو إيران، أو أفغانستان. وبالنسبة إلى واشنطون كان الاعتماد على روسية لعنة، وإيران كانت هي البلاد التي أمضت أمريكا في عزلها أكثر من عقدين من الزمان. فلم يكن مثيراً للدهشة أن الطالبان، حين تولوا السلطة، في كابل في العام 1996، وهم آخر طفرة في

عملاء أمريكا المجاهدين، وجدوا أنفسهم محاطين بتودد جماعة الضغط (اللوبي) الخاصة بالنفط وأصدقائه في الإدارة وفي وسائل الإعلام.

ولاحقاً لأحداث 11 أيلول/سبتمبر من العام 2001، لم يكن أحد أكثر حماسة في الدعوة إلى الإطاحة بطالبان من وول ستريت جورنال. ومع ذلك، فإن هذه الصحيفة، وهي الصوت الأصيل لرأس المال الأمريكي، كانت قبل خمس سنوات من أحداث ايلول/سبتمبر، قد ضربت نغمة مختلفة اختلافاً كاملاً. فالطالبان، كما صرحت الصحيفة "هم أقدر اللاعبين على تحقيق السلام في أفغانستان في هذه اللحظة من التاريخ". وزيادة على ما تقدم، فإن نجاح هؤلاء الأصوليين للغاية كان حاسماً من أجل ضمان أفغانستان لتكون "الطريق الأول للشحن العابر من أجل تصدير نفط آسيا الوسطى الهائل وغازها والمصادر الطبيعية الأخرى"[39].

وفي شهر شباط/فبراير من العام 1999، قام جون جيه. ماريسكا، نائب الرئيس للعلاقات الدولية في شركة الاتحاد للنفط (يونيون أويل كمباني يونوكول، بإعادة طمأنة تحقيق من مجلس الشيوخ بالقول: "إن الطالبان لا تمارس نموذج الأصولية المناوئ للولايات المتحدة الذي تمارسه إيران". ولم يأت على ذكر لتطرف طالبان، وبشكل ملحوظ اضطهادها للنساء. وكانت شركة يونوكول قد وقعت سراً عقداً لتصدير ما قيمته 8 بلايين دولار من الغاز الطبيعي عبر خط أنابيب قيمته 3 بلايين دولار كانت الشركة ستبنيه من تركمانستان، عبر أفغانستان إلى باكستان.[40] وكانت طالبان ستتلقى خمسة عشر سنتاً عن كل ألف متر مكعب تضخها الشركة عبر أفغانستان.[41] إن مشكلة سمعة طالبان كانت معروفة سلفاً، فبعد وقت قصير من استيلاء الملالي على السلطة في العام 1996، أسقطت وزارة الخارجية أفغانستان من قائمة الحكومات التي "تحمي الإرهابيين وتروج لهم". وكون نظام الطالبان في ذلك الوقت يؤوي أسامة بن لادن لم يكن عاملاً في الموضوع. وحين سئل دبلوماسي أمريكي كبير عن سجلهم المرعب في حقوق الإنسان، قال إنه كان من المحتمل أن " يتطور الطالبان مثل السعوديين، " يديرون مستعمرة نفط مع عدم وجود ديمقراطية و"الكثير من أحكام الشريعة" مثل الاضطهاد المشروع للنساء. وقال: "نحن نستطيع أن نتعايش مع ذلك"[42].

في دراسة أحمد رشيد في جامعة ييل بعنوان طالبان، كتب يقول: "إن وزارة الخارجية ووكالة استخبارات الخدمة الداخلية لباكستان وافقتا على أن توجه الأسلحة والتمويل إلى طالبان في حربهم ضد التحالف الشمالي الطاجيكي عرقياً. وحديثاً، في العام 1999، دفع دافعو الضرائب الأمريكيون الراتب السنوي الكامل لكل فرد رسمي من طالبان"[43].

وكانت الخطط الأولى لخط الأنابيب قد رسمتها شركة إنرون، وهي أضخم شركة طاقة في العالم، وكانت ستنهار في العام 2002 تحت وزن فسادها. وبحسب ما يقول مسؤول في المكتب الاتحادي للتحقيق، "حين كان كلينتون يقصف معسكرات بن لادن في أفغانستان في العام 1998، كانت إنرون تقوم بالدفعات الكاملة إلى العاملين من الطالبان ومن جماعة بن لادن للمحافظة على مشروع خط الأنبوب حياً. وليس هناك أي طريقة يستطيع بها أي شخص أن يقول إنه لم يكن يعلم بعلاقة الطالبان وبن لادن في ذلك الوقت، وخصوصاً شركة إنرون"[44].

وفي العام 1997، وبعد الموافقة على "مذكرة تفاهم" عن خط الأنبوب، طار قادة طالبان بسرية عالية إلى الولايات المتحدة، وهناك استقبلوا وأحيطوا بالتودد واستضيفوا استضافة سخية. وكانت زيارتهم سرية جداً إلى درجة أن بحثاً في محفوظات أخبار التلفزة أخفق في الكشف عن بند واحد عن الزيارة. ومع ذلك فالطالبان أنفسهم لم يكونوا خجولين جداً، واستأجروا مستشارة للعلاقات العامة وهي ليلى هيلمز الأفغانية جزئياً وابنة أخت المدير السابق لوكالة الاستخبارات المركزية ريتشارد هيلمز. والرجال الذين يلبسون القميص والسروال التقليدي السابغ والفضفاض، والعمائم السوداء، والذين كانوا قد اعتادوا على الحياة من دون كهرباء ولا مياه جارية في البيوت تناولوا الطعام في البيوت المترفة لرجال أعمال النفط التكساسيين. وفي حفلة على شرفهم استضافها نائب رئيس شركة يونوكول مارتي اف. ميللر، عبروا عن دهشتهم من بركة سباحته الواسعة، وست غرف حمام ومناظر تطل على ملعب غولف. وقال ميللر: "في اليوم الأول، كانوا جامدين وحذرين، ولكنهم قبل مرور وقت طويل، كانوا مسترخين تماماً وسعداء. وسألوا

عن شجرة الميلاد لم هي؟ وكانوا مهتمين بمعرفة ماذا كانت النجمة". وكانت هذه "الضيافة التكسانية القديمة الجيدة". هي التي حسمت صفقة خط الأنبوب.[45]

وفي احتفال في مقر قيادة يونوكول، أُعطي الزوار هدية هي أول آلة فاكس سبق لهم أن حصلوا عليها، مع مولد لتزويد الآلة بالطاقة. وأول وثيقة جاءت تتلوى تنبأت أن خط الأنبوب يمكن أن يعطيهم 100.000 دولار صافياً على الأقل في السنة. ولإكمال خبرة الطالبان الأمريكية، طاروا إلى مركز الفضاء، مركز ناسا وإلى جبل رشمور، الذي حفرت فيه وجوه رؤساء الولايات المتحدة في صفحة التل، وأخيراً إلى سوق للتسوق، وهناك ذهبوا في نزهة في مخزن يبيع بتكلفة أقل من سلسلة حوانيت شركة تارغيت، واشتروا معجون أسنان، وصابوناً، وأمشاطاً، وما يبعث على الاهتمام، جوارب نسائية.[46]

وبالنسبة إلى "المجلس العسكري للغاز والنفط" الأمريكي، كما تعرف جماعة الضغط الخاصة بالنفط هذه الأيام في واشنطون، فإن كل شيء كان يجري بيسر ونجاح. وحين تدبرت يونوكول صفقتها بنجاح مع طالبان، فعلت ذلك نيابة عن اتحاد شركات (كونسورتيوم) من إنرون، وأموكو، وبريتش بتروليوم، وشيفرون، وإكسون، وموبيل. وكان صناع الصفقة الرئيسيون هم ديك تشيني، وزير الدفاع السابق ونائب الرئيس في المستقبل، وكان آنئذ رئيس شركة هاليبيرتون، الشركة العملاقة لتسهيلات النفط، وجيمس بيكر، وزير الخارجية السابق تحت رئاسة جورج بوش الأب. وأما كوندوليزا رايس المستشارة المستقبلية للأمن القومي لجورج دبليو. بوش، والتي تشغل الآن منصب وزيرة الخارجية، فكانت آنئذ نائبة الرئيس لشركة شيفرون للنفط مع المسؤولية عن آسيا الوسطى.

يدخل أسامة بن لادن، وهو من قبلُ عدو صريح للولايات المتحدة يعيش في أفغانستان. وقد صار بن لادن قلقاً من أن الطالبان، إذا تقدمت صفقة خط أنبوب النفط، قد ينتهون إلى أن يكونوا في المعسكر الأمريكي، ويُظَن أن بن لادن كان قد خطط لقصف سفارتين أمريكيتين في شرق إفريقية في العام 1998 ليكون ذلك تحذيراً للأمريكيين لكي يخرجوا من "البلدان الإسلامية"، ومن أفغانستان على

وجه التحديد. ولم يكن رد الفعل الأمريكي مهاجمة أفغانستان، التي كان ابن لادن يختفي فيها، بل كان الرد إرسال الصواريخ إلى الملاذ السابق، إلى السودان. والهدف من هذا الهجوم وكان "ستار دخان" هو مصنع الشفاء للأدوية، الذي وصفته واشنطون بأنه "منشأة للأسلحة الكيماوية".

وكان هذا أمراً غير معقول، فمصنع الشفاء كان مشهوراً في كل أنحاء القارة بأنه مصنع الكلوروكين، وهو أفعل علاج للبرداء (الملاريا)، ومصنع الأدوية المضادة للسل التي كانت خطوط الحياة لمئات آلاف المرضى في إفريقية جنوب الصحراء. وكان المصنع أيضاً هو المصدر الإقليمي الوحيد للأدوية البيطرية التي كانت تقتل الطفيليات التي تنتقل من المواشي إلى الناس، وهي سبب رئيسي من أسباب وفيات الأطفال الرضع. وبحسب ما تقوله مؤسسة الشرق الأدنى (نير إيست فاونديشن)، فقد كانت النتيجة المباشرة للهجوم الأمريكي هي أن "عشرات آلاف الناس – والعديد منهم من الأطفال – عانوا الألم وماتوا من البرداء، والسل، والأمراض الأخرى القابلة للعلاج"[47].

وفي الوقت نفسه، صرحت إدارة كلينتون تصريحاً يبدو غريباً قالت فيه إن القاعدة "لم تكن مدعومة من أي دولة". وكان هذا يعني أنها كانت تحاول أن تنقذ علاقتها مع الطالبان، وصفقة خط أنبوب النفط.[48] ومرة أخرى، أُبرِقَت الدعوات فجأة إلى كابل، وفي شهر آذار/مارس من العام 2001 – بعد مدة قصيرة من إغضاب طالبان للرأي العام الدولي من جراء قيامهم بنسف تماثيل بوذا القديمة في منطقة باميان – طار إلى واشنطون مستشار لزعيم طالبان الملا عمر، وهو سيد رحمة الله هاشمي. ومثل حليف قريب، تم الترحيب به في مقر القيادة العامة لوكالة الاستخبارات المركزية في لانغلي، في فرجينيا، وهناك قابل أعضاء من ذوي الرتبة العالية في مديرية الاستخبارات المركزية. وفي وزارة الخارجية، اجتمع وتشاور مع رئيس مكتب الاستخبارات والبحث.[49] وحين سئل عن بن لادن أجاب بأنه "ضيفنا" و"لا يوجد أي إرهابيين"[50].

وحين أنهت 11 أيلول/سبتمبر من العام 2001 في نهاية الأمر علاقة أمريكا مع طالبان، فإن المدعي العام في وزارة العدل الأمريكية، وهو جون لوفتوس، كشف

عن أن عضواً من القاعدة قُبض عليه، وصف بالتفصيل "عملية إخفاء لوهي] أن شركات الطاقة الأمريكية كانت تتفاوض سراً مع الطالبان لبناء خط أنبوب النفط" وأن "مصادر متعددة تؤكد أن وكالات تطبيق القانون الأمريكي أُبقيت عن عمد في الظلام ومنعت منعاً منهجياً من ربط النقاط قبل 9/11 من أجل مساعدة مفاوضات إنرون السرية وغير الأخلاقية مع طالبان"[51]. وقد كانت إنرون هي الدافع الكبير للمال النقدي للحملة الرئاسية لجورج دبليو. بوش.

وكان السبب الذي قدمته الولايات المتحدة لغزوها لأفغانستان في شهر تشرين الأول/أكتوبر من العام 2001 هو "تدمير البنية التحتية للقاعدة، المسؤولة عن اقتراف 9/11". وعلى كل حال، هناك دليل على أن الغزو كان قد خطط له قبل شهرين، وأن أشد المشكلات ضغطاً لم تكن ارتباطات الطالبان مع أسامة بن لادن، بل احتمال فقدان الملالي للسيطرة على أفغانستان لفئات المجاهدين الأخرى في تحالف الشمال. ومع كل هكتار من الأرض تنازل الطالبان عنه، كان يحكم على طالبان في واشنطون بأنها تفتقر إلى "الاستقرار" المطلوب من عميل مهم. لقد كان ثبات علاقة هذا العميل، لا كراهية طالبان لحقوق الإنسان، هو الذي أزعج إدارة بوش.

حين اعتقد الطالبان أن وجود أسامة بن لادن كان مفسداً لعلاقتهم مع واشنطون، حاولوا التخلص منه. وبموجب صفقة تم التفاوض عليها مع قادة الحزبين الإسلاميين في باكستان، كان يتعين أن يحتفظ بأسامة بن لادن تحت الاعتقال المنزلي في بيشاور. وقيل إن الخطة كانت موضع موافقة من بن لادن نفسه ومن الملا عمر. وستقوم بعدئذ محكمة دولية بالاستماع إلى البينات وتقرر إن كانت ستحاكمه أو ستسلمه إلى الأمريكيين. وتحت ضغط من الأمريكيين، اعترض رئيس باكستان مشرف على الخطة ونقضها.[52] وبحسب قول وزير الخارجية الباكستاني نياز نياك، فإن دبلوماسياً أمريكياً كبيراً أخبره في 21 تموز/يوليو من العام 2001 أنه قد تقرر التخلص من الطالبان "تحت سجادة من القنابل"[53].

هب الغبار في عصفات وأنا أسوق السيارة إلى داخل قرية بيبي ماهرو. تحت حكم الطالبان، كان من الممكن السفر خارج المدن بأمن نسبي، وأما الآن،

فالريف متاهة خطرة من نقاط التفتيش وقطع الطرق. وحين وصلت قافلتنا وكانت من سيارتين، كان القرويون يقفون وكأنهم صور مؤطرة في ظلال المداخل الطينية لدورهم، ونظروا بعيداً عنا في حين أسرع عديدون منهم إلى الداخل. إنهم أفقر الفقراء، وقبورهم معلمة بقطع فقط من الصخر الغضاري، وبالأعلام الخضراء الممزقة. هنا ركعت أوريفا على قبور زوجها، غول أحمد، نساج السجاد، وسبعة أعضاء آخرين من أسرتها، ومن جملتهم ستة أطفال، ومعهم طفلان كانا قد قتلا في البيت المجاور.

كان الوقت وسط النهار في 7 تشرين الأول/أكتوبر في العام 2001 حين ظهرت طائرة اف – 16 أمريكية من سماء صافية زرقاء وألقت قنبلة "الدقة" من نوع أم كي 82 زنة 500 رطل على البيت الصغير المبني من الطين، والحجارة والقش. وكانت الحفرة التي حلت محل البيت بعرض 500 قدم. كانت أوريفا بعيدة عن البيت تزور أقارب لها، وحين عادت، قيل لها أن تذهب إلى المسجد وأن تجمع أشلاء جثثهم.

وقالت: "لم أستطع أن أتذكر ماذا حدث بعد ذلك. صرت غائبة عن الوعي من الصدمة. وحين فتحت عيني، كنت في المسجد، وكانت سيارة أجرة قد أوصلتني. كان زوجي مسجّى على فراش نقالة الموتى. ولم يكن هناك مكان لغسل الجثث، وكان أولادي وبنتي في حالة مروعة. أحدهم كان محترقاً كله، والأخرى كانت مهشمة إلى درجة لم أتمكن معها من معرفتها. وإحدى الفتيات الأخريات كانت بلا رأس تقريباً. والأخرى، كان قد زال عنها كل اللحم الأسود. ووجدت نفسي أجمع أشلاء من اللحم، وأضعها في أكياس وأسميها من أجل الدفن. عملت حتى منتصف الليل إلى أن دفناهم أخيراً. وحينئذ فقط أدركت أنني بلا بيت، لا أملك شيئاً، لا أملك إلا رحمة الله تعالى ثم يد ابني الذي بقي على قيد الحياة".

والابن الذي عاش، واسمه جواد، كان في الرابعة عشرة من عمره في ذلك الوقت. وكانت في وجهه قطع من الشظايا وكان يجب اقتلاعها باليد من وجهه، وهو مليء بالندوب بشكل دائم. والولد صامت، ويجلس وذقنه في يده خلف أوريفا وهي تعمل على ماكينتها، ماكينة الخياطة القديمة في كوخهم خلف الحفرة.

وهي تستأجر ماكينة الخياطة، التي تدر عليها دخلاً يساوي أقل من دولار يومياً. وقالت إن ممتلكاتها الوحيدة هي صور زوجها الميت وأطفالها مرتبين على رف بارز لنافذة حول زجاجة فارغة تقريباً، من صابون الشعر السائل (شامبو)، زرقاء اللون.

وسألتها: "هل حصلت على أي تعويض؟"

"حصلت [على حوالي 400 دولار] وذهبت كلها على العناية الطبية لجواد".

وسألتها: "هل الأمريكيون هم الذين أعطوك ذلك؟"

"لا، الطالبان. لقد جاؤوا وصلوا وأعطوني المال في حقيبة قماش... بعد ذلك، جاء أحد عشر أمريكياً وتفحصوا الحفرة التي كان بيتي مبنياً عليها. وكتبوا الأرقام على قطع الشظية وتحدث كل واحد منهم معي ودونوا ملاحظات. وحين كانوا يغادرون، أعطاني مترجمهم ظرفاً فيه خمس عشرة ورقة نقدية: خمسة عشر دولاراً. وهذا ما يساوي أقل من دولارين عن كل واحد قتل من أسرتي".

"هل سمعت ما حدث في أمريكا في 11 أيلول/سبتمبر من العام 2001؟"

"نعم. وأنا لا أعرف كل التفاصيل لأنني امرأة أمية. لقد سمعت أن الكثيرين قتلوا: ومن جملتهم الأطفال. ولكن لماذا يجب أن تموت أسرتي أيضاً؟ ما هذه الحرية التي يقول الأمريكيون إنهم أحضروها إلينا؟ أرجو منك أن تشرحها لي"[54].

في الساعة 7.45 صباحاً من 21 تشرين الثاني/أكتوبر من العام 2001، كان غلام رسول، مدير مدرسة المشروع الجديد في مدينة خير خانا، قد أنهى تناول طعام الفطور مع أسرته. ومشى إلى الخارج للدردشة مع جار له. وداخل البيت كانت تقيم زوجته شيكريا، وعمره خمسة وثلاثون عاماً، وأبناؤه الأربعة وأعمارهم راوحت بين ثلاثة أعوام وعشرة أعوام، وأخوه وزوجته، وأخته وزوجها. وكان هناك انفجار والتفت مدير المدرسة ليرى دخاناً يتصاعد بعيداً نحو 100 متر، وطائرة تغزل في السماء، وتتجه نحوه. وانفجر البيت في كرة من النار خلفه. تسعة أشخاص، ومن جملتهم صبي قتل بالجوار، مات في هذا الهجوم الذي قامت فيه طائرة اف – 16 بإسقاط قنبلة "دقة" أخرى زنة 500 رطل. والوحيد الذي بقي على قيد الحياة هو ابن غلام البالغ تسعة أعوام، أحمد بلال.

جلست مع مدير المدرسة وابنه على شرفة بيت مجاور. وتكلم بسرعة، وبطلاقة، وهو ينظر إلي مباشرة وهو يتلو أسماء أبنائه القتلى وأعمارهم... "أحمد خالد، وعمره عشر سنوات، أحمد حارس، وعمره ست سنوات، وأحمد تامر، وعمره خمس سنوات، وأحمد ساحل، وعمره ثلاث سنوات...

"معظم الناس الذين قتلوا في هذه الحرب التي يسمونها تحريراً لم يكونوا من الطالبان، كانوا أبرياء. إذا فكرنا تفكيراً عميقاً حول ثورة طالبان فإننا ندرك أن أمريكا كانت هي التي طورتهم وغذتهم، وكانت أمريكا هي التي دمرت سلطتهم، وكان ذلك فعلاً إرهابياً، لأننا نحن الذين ندفع الثمن، نحن الشعب. هل كان قتل أسرتي غلطة؟ لا، لم تكن كذلك. هم يطيّرون طائراتهم وينظرون إلى أسفل إلينا، مجرد الشعب الأفغاني، الذي لا يملك أي طائرات، وهم يقصفوننا بسبب حقنا الطبيعي المكتسب بالولادة، وبكل الاحتقار".

"وما هو التعويض الذي تسلمته؟"

"لاشيء. وما من أحد جاء. ما من أحد أرسل شيئاً. صديقي، رئيس الشرطة ذهب إلى السفارة الأمريكية. ولم يفهموه، وأغلقوا الباب بوجهه"[55].

في 29 كانون الأول/ديسمبر من العام 2001، كانت قرية نيازي قلعة تقيم حفل زواج لابن مزارع محترم، هو باهرام جان. وسافر أعضاء من عائلة العروس عبر السهل الجنوبي الشرقي الكبير الجاف. وبحسب كل الروايات، كانت مسألة واضحة صاخبة، مع وجود موسيقى وغناء وبنادق قديمة يجري تفريغها في سماء الليل. وفي الصباح، كان هناك دمار: على سياج، هناك ملابس ممزقة وأشلاء اللحم البشري تتأرجح في الهواء، والبيوت مدمرة، ووسط الآجر، هناك المزيد من اللحم البشري وخصلات شعر الأطفال.

كان زئير الطائرات قد بدأ في الثالثة في الصباح، بعد أن انسحب كل شخص بمدة طويلة ليأوي إلى الراحة في الليل. ثم بدأت القنابل بالسقوط – زنة 500 رطل تقود الطريق، تجرف الأرض وتدمر صفاً من البيوت. وبحسب رواية الجيران الذين

كانوا يراقبون من مسافة، طارت الطائرات ثلاث طلعات فوق القرية وحوّمت طائرة عمودية قريبة من الأرض، وأطلقت مشاعل، ثم صواريخ. وشوهدت النساء والأطفال وهم يركضون نحو بركة جافة، ربما بحثاً عن الاحتماء من نيران الأسلحة، ولكنهم قتلوا رمياً وهم يركضون.

وقال القائد الأمريكي في قاعدة باغرام العسكرية، بالقرب من كابل، إن قائدين من طالبان كانا من بين ضيوف العرس وكانا "هدفاً عسكرياً مشروعاً". ولم يجدْ تحقيق قامت به الأمم المتحدة أي دليل على هذا، واستنتج التحقيق أن الادعاء بأن الطائرات قد طاردت النساء والأطفال كان ادعاء مبنياً على "أساس صحيح". وقال تقرير الأمم المتحدة، إنه في أثناء ساعتين من الهجوم، قتل اثنان وخمسون شخصاً: سبعة عشر رجلاً، وعشر نساء، وخمسة وعشرون طفلاً. وقد أخبر رجل كبير في السن المحققين، وهو شير خان، الذي فقد سبعة أقرباء، أن هناك ثمانية وأربعين شخصاً كانوا ما يزالون مفقودين.

ما كان غير عادي حول تلك الفظاعة الوحشية هو أنها لم ترو في الغرب.[56] ومثل مذبحة عائلات أوريفا وغلام رسول، هناك عدد لا يحصى من الهجمات الأخرى على قرى معزولة لم ترو ولم يتم دفع أي تعويضات عنها. ومنها سيارة ركاب كانت تحمل لاجئين هاربين ونسفت الطائرات الأمريكية هذه السيارة ومات من ذلك خمسة وثلاثون شخصاً. وقرية كارام قصفت مراراً وتكراراً، وقتل منها 160 نفساً على الأقل. والطائرات من نوع إي سي– 130 المنخفضة الطيران، والمصممة لتدمير الدبابات، هاجمت بالرشاشات والمدافع المحمولة عليها قريتين هما بوري تشوكار وتشوكار – كاريز، وقتلت ثلاثة وتسعين شخصاً.

والقلة من الصحافيين القادرين على جمع البينات وتقديمها والراغبين في ذلك قيل لهم مراراً وتكراراً في واشنطون: "إنها لم تحدث". وفي حالة تشوكار – كاريز عبّر ناطق باسم وزارة الدفاع عن خيبة أمله من نصه. وقال: "الناس هناك كانوا أمواتاً لأننا نحن أردناهم أمواتاً"[57]. وفي الوقت الذي كانت التكتيكات القاتلة قد عرفت في الهجوم على العراق، فإن النمط المماثل من الفظاعات

الوحشية في أفغانستان لم يعرف. وفي زمن الكتابة، منع المحققون المستقلون من الدخول إلى المناطق المصنفة "عملياتية" وفقدت وسائل الإعلام الغربية الاهتمام بعد ذلك.

وفي جامعة كابل، قابلت الأستاذ الدكتور كاظم أهانغ، وهو عالم اجتماع، وسألته عن نقص التعويض للمدنيين الذين قتلوا. وأجاب بمفارقة ساخرة جافة كجفاف الغبار: "يجب أن تفهم، أن كثيرين من الأجانب جاؤوا ليساعدونا. وهناك أحد عشر ألف وكالة غير حكومية دولية هنا. والكثيرون من موظفيها يحصلون على عشرة آلاف دولار في الشهر. فلإبقاء مسؤول واحد فقط هنا لمدة عام واحد، فإن الأمم المتحدة تصرف مائتين وخمسين ألف دولار".

ووقفت خارج مدرسة الغازي الثانوية في كابل الغربية المدمرة لأتحدث مع الطلاب. وقال لي أحدهم: "أخبرني من فضلك، أين سبق لك أن رأيت مدرسة مثل مدرستنا؟" كانت المدرسة أنقاضاً تقريباً. مع وجود قطع من الخيش وصفائح البلاستيك تغطي الفصول العاملة. وحين كنت أدردش مع الطلاب، خطا رجل إلى خارج البوابة.

وسأل قائلاً: "من أنت؟"

"أنا صحفي من بريطانيا".

"ما هو الراتب الذي تكسبه؟"

"لماذا؟"

"حسناً، أنا أحصل على ثمانية وثلاثين دولاراً في الشهر، وأنا مدير هذه المؤسسة. وأنا أسألك: لماذا يجب أن تحصل أنت على أكثر مما أحصل عليه، ولماذا يجب أن تأكل كل مساء في حين أفتقد أنا فيه وجبة لكي تستطيع أسرتي أن تأكل؟ نحن كلانا من بني البشر، ألسنا كذلك؟"

"نعم".

"أنا آسف إن كنت أهينك".

"أنت لا تهيننني: أنت على حق. هل يمكنني أن أرى مدرستك؟"

"نعم، من فضلك، أنت ضيفي، تعال إلى الداخل..".

جلس الأطفال على حصر وتقاسموا كتاب تمارين واحد، وكان هنا وهناك كتاب نصوص، قديم ومصفر وممزق وبصفحات مفقودة. وحين قرع المدير جرساً نحاسياً كبيراً، تبادل الأطفال مكاناً مهجوراً للتعليم بآخر. وراقبت وهو يقوم مع العدد القليل من هيئة التعليم بالقراءة لهم، كيف كانوا يدأبون على العمل بشكل بطولي. وأخبرني: "بأن هذه الحروب قد كان لها آثر بالغ الخطورة على معنوياتنا جميعاً، خذ حالتي أنا نفسي مثلاً: منذ سنوات قليلة، كنت أستطيع أن أتحدث الإنجليزية بطلاقة، ولكنني الآن نسيت كل شيء. الحروب تجعل المرء ينسى لغته، وتعليمه، وتعاليمه. والطالب اليوم يحتاج إلى تكرار وتكرار الموضوع له، وإلا فإنه لن يفهم، والسبب هو أن الفتيان قد تعرضوا للغزو عاطفياً وتركوا مع الألم فقط. إنهم يقلقون باستمرار بشأن هجمات قذيفة أو قنبلة، أو بشأن لغم يدوسون عليه، وهم مذعورون من الطيران. إن هذه الحروب قد أخذت أذهاننا بعيداً، وأخذت الروح من حياتنا، وتركتنا مع غلاف أجسادنا فقط.

نادراً ما سمعت أي إنسان خائف وفصيح وشجاع مثل هذا الرجل صاحب المبدأ. وبكتفيه المربعين، وشاربه اللطيف، كان يمتلك ما كان يعرف سابقاً بحسن الهيئة. ومع ذلك فإن حذاءه قد تفتق وانفتح في درزاته. وعرضت عليه المال "من أجل المدرسة"، ولكنه رفض المال حين كان يمد يده ليصافح يدي. وأنا متأسف لأنني أضعت اسمه، وكان قد كتبه لي بخط إنكليزي منمق، وكتب في نهايته و"السلام عليكم"[58].

وفي أثناء قيادة السيارة إلى قاعدة باغرام، ارتفعت الجبال التي يغطي الثلج قممها فوق مشهد أرضي كأنه من سطح القمر وسار عبره طريق فارغ ضيق كالشريط، أنشأته القوات العسكرية السوفيتية حين بنت القاعدة في الثمانينيات من 1980. والقاعدة الآن جيب أمريكي يتمتع بتكييف الهواء، والأفلام السينمائية،

والبريد الإليكتروني، وكل الطعام والماء المستوردين. والعربات الأمريكية تدخل وتخرج مسرعة، وهي ترفع أعلاماً أمريكية كبيرة. هناك إحساس من البند – 22 (كاتش – 22)*: من جنود متجهمين، وميالين للتمرد قليلاً، بحجم الخنزير ومن ضباط محترفين إما أنهم يتظاهرون بجنون معين ساخر أو أنهم مضطربون بالفعل.

وسألني الجندي عند البوابة: "كيف وصلت إلى هنا؟"

"سقنا السيارة من كابول".

"وأين تلك؟"

"إنها عاصمة البلاد، وهي على بعد ساعة".

"مفهوم".

في غرفة الإيجازات في القاعدة كان هناك سبورة وقد كتب عليها بخط متعجل "ما من شيء أمقته أكثر من نتن الأكاذيب – كيرتز، المعروف أيضاً باسم مارلون براندو". وإلى جانب هذا تدلت راية لامعة صفراء تقول "مدرسة جيمس بوكانن الثانوية تحب الوحدة 109. نحن فخورون بأن نكون أمريكيين. شكراً من أجل حماية حقوقنا". وتحت هذه كان مكتوباً "لا صور خليعة في حاسوب الحضن النقال (اللابتوب)!" ثم إن ضابطاً له رأس لامع وابتسامة ثابتة وعريضة بشكل نادر دخل إلى غرفة الإيجازات وهو يقفز وصعد إلى المنبر.

"صباح الخير! أنا العقيد رود ديفيز، مدير العلاقات العامة في وحدة سي جيه تي اف 180 (قوة الواجب المشترك للتحالف 180). هذا الصباح سوف آخذكم في جولة في قاعدة باغرام الجوية، مبتدئاً بما نشير إليه باسم مدرسة باغرام الثانوية، التي يحضر إليها الفتيان الأفغان المحليون. وهي المدرسة الوحيدة في المنطقة وهي

* إشارة إلى رواية بهذا الاسم للكاتب الأمريكي جوزيف هيللر، ويشير هذا البند مجازاً إلى أي ترتيب غير معقول يضع الفرد في مأزق لا حل له، مثل القول إن الشخص لا يستطيع أن يعمل من دون الحصول على خبرة، ولكنه لا يستطيع أن يحصل على الخبرة من دون أن يعمل. (المترجم)

مدعومة من الحكومة الأمريكية. والمدرسة جزء من التزامنا بالعمل المدني، وعملنا الإنساني. ونحن نسمي هذا العمل الالتزام بالعمل المدني".

وسألت: "هل هي مثل وحدة كسب القلوب والعقول؟"

"عفواً سيدي؟"

"كسب القلوب والعقول، مثلما كان لدى الجيش في فيتنام".

"هيه، أنا أحب القلوب والعقول: أحب مغزاها، والسباق إليها"[59]

وصاح الرقيب ميلفن مريل عبر مكبر صوت: "تعالوا اخرجوا، نحن أصدقاؤكم!" ولكن ما من ظل تحرك.

"تعالو اخرجوا كلكم كل واحد منكم، معنا رز وحلوى وفراشي أسنان لنعطيكم".

كان الرقيب مريل قد أحضر وحدته، وحدة كسب القلوب والعقول، إلى قرية توآلون في فيتنام المركزية. والآن تمتم في صمت ساخن، "استمعوا، إما أن تأتوا وتخرجوا أيها الفيتناميون من حيث أنتم وإلا فنحن سنأتي إليكم وندخل ونصل إليكم وقد نقتلكم!"

وهكذا فإن الناس في توآلون خرجوا من حيث كانوا سابقاً ووقفوا في صف لاستلام رزمهم من رز معجزة العم بن (أنكل بنز ميراكل رايس)، وقوالب الشوكولاتة وبالونات الحفلات، و7000 فرشاة أسنان، وفي حفل خاص يناسب مكانة رئيس المنطقة أهدي له أربعة مراحيض تصب الماء صفراء محمولة تعمل بالبطاريات.[60]

وقال العقيد ديفيز وهو يقودني، بخطوة شديدة عبر "مدرسة باغرام الثانوية": إن شعب أفغانستان ممتن لنا". وكانت الوجوه الغامضة تراقبنا باهتمام، وما من أحد نبس ببنت شفة. وكان مساعد العقيد يحمل بندقية ام – 16 آلية. وقال العقيد ديفيز "هيه، يجري إطلاق النار علينا في كل مرة نغادر فيها القاعدة". ولتوضيح

ذلك، أخذ مسدساً من قراب مربوط إلى فخذه ونصبه. "أنا أحب أن يكون أصبعي على الزناد في كل الأوقات.."

"ولكنك أيها العقيد قلت إن هؤلاء الناس ممتنون.."

"سيدي، نحن حررناهم. نحن أعطينا نساءهم الحرية... بالتأكيد لدينا الكثير من عمل الالتزام المدني لنقوم به، أو كسب القلوب والعقول. هيه، أنا أحب أن يكون: الأقل من الدوي والأكثر من كسب القلوب والعقول!"

وحين أسرعنا بعيداً عن المدرسة، بدا العقيد مسترخياً. وسألته: "هل أستطيع أن أرى مركز التحقيق؟"

"وو واه!... لابد أنك تشير إلى منشأة الاحتجاز".

"من لديكم فيها هناك؟"

"نحن نشير إليهم بصفتهم أفراداً تحت الحراسة، ومن المؤكد ليسوا أسرى حرب".

"أليس الكثيرون منهم أناساً أبرياء، اعتقلوا في الحرب على الإرهاب، وهم ليسوا إرهابيين، وهم يختفون في هذا المكان، ثم ينتهون في خليج غوانتانامو؟"

"هؤلاء أناس غير شرعيين".

"تحت أي قانون هم غير شرعيين؟"

"إنها نوعاً ما مسألة معقدة وأظن أن هناك نوعاً من السلسلة المتصلة أو الطيف، إن شئت، مع وجود أسرى الحرب في أقصى اليسار أو أقصى اليمين وهذا يتوقف على منظورك السياسي، وشيء ما أقل من ذلك الأقصى إلى النهاية الأخرى القصوى... أمريكا موجودة في مكان ما على ذلك الطيف".

"أيها العقيد، أنا لم أفهم كلمة واحدة من ذلك".

وساد صمت طويل.

"أنا مسيحي، يا سيدي".

"نعم؟"

"أنا سأقتل ولكنني مسيحي".

كنا الآن واقفين خارج "منشأة الاحتجاز"، وهي خطيرة طائرات بلا نوافذ حولت لهذا الغرض. وهنا يحقق مع "المشتبه بهم من القاعدة" قبل أن يطيروا إلى خليج غوانتنامو أو، إذا استخدمنا رطانة وكالة الاستخبارات المركزية قبل أن "يعادوا" إلى بلد مثل مصر، التي يمكن أن يعذبوا فيها خارج نطاق وصول القانون الأمريكي. وقد وصف سجينان سابقان، هما عبد جابر وحكيم شاه، كيف فُرض على ما يصل إلى مائة نزيل أن يقفوا وعيونهم مغطاة، وأذرعتهم مرفوعة للأعلى ومربوطة بالسلاسل في السقف، وأقدامهم مصفدة، وغير قادرين على الحركة، نهاراً وليلاً. عبد الجابر عانى هذا العذاب لمدة ستة عشر يوماً، وهو واقف لمدة عشرة أيام متواصلة إلى أن تورمت ساقاه إلى درجة أوقفت الأصفاد الموجودة حول كاحليه انسياب الدم. وكان عارياً طوال الوقت، وتكييف الهواء مفتوح على أكمل تبريد له. وأبقاه مستيقظاً، مع وجود الحراس الأمريكيين الذين كانوا يرفسونه ويصرخون به لمنعه من النوم. ثم أطلق سراحه فجأة، من دون تقديم الشرح. وأما مصير الآخرين فليس معروفاً.[61]

روى معظّم بيك، وهو البريطاني الذي أفرج عنه من خليج غوانتامو في شهر كانون الثاني/يناير من العام 2005، روى أنه في أثناء عام أودع فيه السجن في قاعدة باغرام شهد وفاة اثنين من زملائه السجناء "على أيدي الأفراد العسكريين الأمريكيين"[62]. وقد كشفت التقارير الداخلية العسكرية التي حصلت عليها جماعة مراقبة حقوق الإنسان (هيومان رايتس ووتش) أن فلاحاً يبلغ من العمر اثنين وعشرين عاماً اسمه ديلاور كان قد ضرب ضرباً قاسياً في أثناء يومين من الاستجواب في "منشأة" باغرام إلى درجة أنه "لو بقي على قيد الحياة، لكان يتعين بتر ساقيه الاثنتين". وتقول شهادة وفاة مؤرخة في 13 كانون الأول/ديسمبر من العام

2002، وموقعة من الرائد إليزابيث راوس، وهي اختصاصية عسكرية أمريكية في علم الأمراض، إن الرجل مات نتيجة "أضرار القوة الفظة التي وقعت على الطرفين السفليين محدثة بذلك تعقيدات في مرض الشريان التاجي". ووصفت الاختصاصية موته بأنه "قتل إنسان"[63].

وقال العقيد ديفيز: "نحن نعامل الناس هنا معاملة إنسانية وعادلة. ليس هناك أي إساءة أو تعذيب..".

"أيها العقيد، هناك دليل من اختصاصية في علم الأمراض منكم، وصفت كيف قتل رجل أفغاني اسمه ديلاور. وسجينان سابقان رأياه عارياً، ومغمى العينين ومصفداً، ومحروماً من النوم لعدة أيام في النهاية. هل تعرف تلك القضية؟"

"أنا على اطلاع على المزاعم وما سأقوله لك هو أننا غير معروف عنا أننا نقترف الفظاعات الوحشية. ليست تلك هي الطريقة نقوم بها بالعمل".

"ولكن وكالة الاستخبارات المركزية وصفت أساليبها هنا بأنها "رمي القفازات"، أي، الهجوم بلا هوادة.

"كل المزاعم يجري التحقيق فيها".

"لماذا لا تسمح لمنظمة العفو الدولية بتفتيش المنشأة؟"

"دعني أشرح موقفنا بهذه الطريقة. إن أحد الأمور القاسية حول حرب الأيام الحديثة، هذا العصر من الإرهاب، هو أن الخطوط رمادية. فالإرهابيون ليسوا عاملين رسميين تمت الموافقة عليهم، فهم ليسوا مزودين بكل الحقوق الموجودة في ميثاق جنيف..".

"من الذي يقول إنهم إرهابيون؟"

"نحن نقول ذلك".

"أيها العقيد، أنا قابلت أخا الرجل الذي كان اسمه وزير محمد. كان سائق سيارة أجرة واستفسر في نقطة تفتيش عن صديق له، عن سائق سيارة أجرة آخر،

كان قد اختفى في باغرام. من أجل ذلك فقط، تم اعتقاله، واحتجز هنا وهو الآن في خليج غوانتنامو. وأن وزيراً سابقاً في الحكومة الأفغانية الحالية يعرف الرجل تمام المعرفة. وهو الذي أخبرني أن ذلك الرجل لم يكن بريئاً وحسب، بل هو معروف معرفة جيدة بأنه معارض للطالبان وسبق أن سجنوه. ولكنه الآن في قفص أمريكي في غوانتنامو..".

"سيدي، ما هو قصدك من إخباري بهذا؟"

"القصد هو أن أسرته لم تحط علماً بأي شيء، وهم لا يتمالكون أنفسهم من القلق. وجميعهم حرموا من حقوق الإنسان الأساسية. فماذا تقول لهم ولكل أولئك الذين هم من أمثالهم؟"

"سيدي، أنا لا أشك في صدقيتك أو صدقية ذلك الفرد، أنا فقط لا أستطيع أن أعلق..".

"كيف كنت ستحبها لو أن جيشاً أجنبياً غزا الولايات المتحدة وعوملت أنت وأسرتك بهذه الطريقة، وحرمت من أي معلومات؟"

"أنا لا أفهم أسئلتك..".

"كيف تحبها لو أنك كنت محبوساً ولم يعرف أحد عنك في الخارج شيئاً، ولم يحط أحد علماً عنك بأي شيء؟"

"أنا لا أفهم الدافع وراء هذه الأسئلة".

"إنه بسيط: كيف كنت ستحب ذلك؟"

"أنا أمريكي، وأنا مسيحي".

إن الإجابات البارعة التي يجيب بها العديد من عقداء "العلاقات العامة" قد خدمت عملية صرف انتباه الصحافيين عن أهم مرحلة من حرب أمريكا "الحرب على الإرهاب" منذ غزوها لأفغانستان. وهذه هي مرحلة إنشاء معسكرات الاعتقال والسخرة (الغولاغ) و" منشآت " التعذيب عبر العالم وأفغانستان هي مركز النشاط.

وقاعدة باغرام هي النموذج لنظام يضم ما يصل إلى عشرة آلاف سجين كانوا ومازالوا تجري "معالجتهم" و" إعادتهم" غير محميين بالقانون الدولي أو بقانون أي بلد.

وكما في أمريكا اللاتينية في السبعينيات من 1970 والثمانينيات من 1980، فقد "اختفى" الكثيرون. وبحسب قول مدير هيئة حقوق الإنسان الأفغانية المستقلة فإن "عدة آلاف من الناس كانوا قد جُمِعوا واحتُجِزوا. وأولئك الذين حُرِّروا من الحجز يقولون إنهم قد قبض عليهم معاً إلى جانب المحتجزين الأجانب الذين كانوا قد أحضروا إلى هذا البلد لتتم معالجتهم. لا أحد متهم. ولا أحد محدد الهوية. ولا مراقبين دوليين مسموح لهم بالدخول إلى [هذا] السجون الأمريكية". وهؤلاء الناس معروفون باسم "المحتجزون الأشباح"[64] وقال مراسل أفغاني لهيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي) وكان قد أعتقل من دون تقديم شرح: "في كل مرة نقلت فيها، كنت مغمى العينين مرة أخرى. وعلى كل سجين أن يحافظ على الصمت المطلق. وكنت أستطيع أن أسمع الطائرات العمودية تئز وتدوم فوقي. وكان السجناء يصِلون ويغادرون في كل وقت. وكان هناك زنزانات تحتي أيضاً، تحت الأرض"[65].

على متن رحلات جوية سرية لوكالة الاستخبارات الأمريكية، كان السجناء يتحركون جيئة وذهاباً كالمكوك بين أفغانستان ومصر، والأردن، وسورية، وماليزيا، وتايلند، وإندونيسيا، وباكستان، وأزبكستان، وبين القاعدة الأمريكية في المحيط الهندي في جزيرة دييغو غارسيا، كما يعتقد، وهي التي كانت مستعمرة بريطانية. وهنا كان السجناء يسلمون إلى "مقاولين" أمريكيين أو إلى محققين محليين من ذوي السمعة المرعبة. وكتب أندريان ليفي وكاتي سكوت – كلارك في تحقيقهما الخاص لصحيفة الغارديان: "إن ما لُمح في أفغانستان هو خطة راديكالية (جذرية) لاستبدال خليج غوانتنامو. وإن البينات التي جمعناها، على أي حال، تظهر أن كثيرين آخرين من أولئك الذين زج بهم قسراً إلى الشبكة ليس لديهم إلا القليل من الاتصالات التي يمكن البرهان عليها مع أي منظمات تعتبر

خارجة عن القانون: والخبراء في هذا الميدان يصفون قيمتهم في الحرب ضد الإرهاب بأنها (تافهة)[66] "

طرت إلى نيويورك وركبت سيارة أجرة إلى الطريق الأول (فيرست أفنيو) في مانهاتان إلى ما كان في العادة حياً للطبقة العاملة، الجانب الشرقي الأسفل (لور إيست سايد) وهو الآن القرية الشرقية (إيست فيلليج) ذات الطراز الحديث حسب الموضة. ريتا وتيد لازار انتقلا إلى شقة صغيرة في الطابق الخامس عشر هنا مباشرة بعد أن تزوجا. ريتا جاءت من أسرة يهودية متدينة وأما خلفية تيد فكانت علمانية. قالت ريتا: "إن أسرتي لم تغفر لي أبداً في الحقيقة، فتيد وأنا كنا زوجين سياسيين بمعنى أننا كنا مهتمين بشأن هذه الحياة، وبشأن بلدنا وبالعالم".

على الرفوف، بين صور العائلة، كانت توجد مجموعة من الكتب الممتازة: هيروشيما، وحرب فيتنام، ونيكسون، وعناوين للكاتب غور فيدال*، ورواية كينغزلي آميس** جيم المحظوظ. وكتاب جيرمين غرير*** الأنثى المخصبة، وكتاب جيبون**** انهيار الإمبراطورية الرومانية وسقوطها.

كانت إحدى الصور لرجل ضخم مشرق الوجه، يستريح رأسه على كتف ريتا. كان هذا هو أخوها إيب، الذي عمل عند شركة التأمين الطبية بلو كروس (الصليب الأزرق) في الطابق السابع والعشرين من مركز التجارة العالمي، البرجين التوأمين.

قالت ريتا: "في 11 أيلول/سبتمبر من العام 2001، كنت أجلس إلى طاولة مطبخي، مثل كل صباح يوم آخر، أدخن سيجارتي الأولى وأتناول فنجاني الأول من القهوة واستمع إلى المذياع، وقبل الساعة التاسعة بقليل قطع مذيع البث وقال إن طائرة قد ضربت قبل قليل أحد البرجين من مركز التجارة العالمي. وركضت عبر القاعة إلى شقة

---

* غور فيدال (1925–) كاتب أمريكي روائي ومسرحي وممثل.(الهوامش من صنع المترجم)

** كينغزلي آميس (1922 – 1995) كاتب بريطاني روائي وشاعر.

*** جيرمين غرير (1939–) كاتبة أسترالية معروفة بكتاباتها النسوية.

**** إدوارد جيبون (1737–1794) مؤرخ بريطاني.

صديقتي وكانت نوافذها تطل في الخارج على مركز التجارة العالمي. ووصلت إلى النافذة في الوقت المناسب لأرى الطائرة الثانية تضرب المبنى الثاني. وحينئذ فقط، وهو أمر غريب للغاية، قلت: (يا إلهي، أخي موجود في ذلك المبنى.)

"وركضت عائدة وهاتفت أكبر إخوتي الذي كان يعيش معه إيب، وقال لي إنه كان يتحدث مع إيب على هاتفه الجوال ويصيح به ليخرج، وإن إيب كان قد قال له: (أنا سابقى هنا لأن إد، صديقي، مشلول اليدين والرجلين في كرسي مقعدين وأنه لم يكن ليستطيع الخروج.) واستمر إيب بالإصرار على أنه لن يترك صديقه، واستمر كل واحد بالصراخ رداً عليه في الهاتف الجوال. (اخرج من هناك!) وهو يقوم بإنهاء المكالمة معهم. واستمر مرور الزمن في اليوم، ومن المستحيل وصف كيف كان الحال هنا في نيويورك في ذلك اليوم، وخصوصاً بالنسبة إلى الناس الذين كان لهم شخص ما في المبنيين. بعدئذ بدأت الرائحة تدخل عبر باب شرفتي، وبعد ذلك انهار المبنيان. تلك اللحظة هي الشيء الوحيد الذي لم أكن متماسكة واضحة بشأنه..".

"هل كان لديك إحساس بالزمن؟"

"لا أعتقد ذلك. يبدو أنني كنت أتحدث في الهاتف باستمرار، أهاتف كل المستشفيات، هنا، ونيوجيرسي، وفي جميع الأنحاء، أبحث عن أخي. وهاتفني داني، وهو أفضل صديق لإبني، وقال: (هل شاهدت خطاب الرئيس؟) وأجبته لا. فقال: (الرئيس ذكر أخاك.) وقلت له: (عم تتحدث أنت؟) وبعدئذ، فكرت، يا إلهي، لابد أنه كان هناك الكثير من الناس الذين تخلفوا عن الخروج وبقوا مع أصدقائهم الذين يستخدمون كراسي المقعدين. وأنت لا تظن أنه كان أخوك، ولكنه كان أخي. وفوراً، فوراً، عرفت أن بلادي كانت ستستخدم موت أخي لتبرير قتل الناس الأبرياء في أفغانستان وفي أي مكان غيرها سينظرون".

"ماذا قال الرئيس بوش؟"

"قال إن شخصيتنا القومية قد اختبرت. واستخدم كلمات مزخرفة وقال: (رجل كان يستطيع أن ينقذ نفسه اختار بدلاً من ذلك أن يبقى ليساعد على إنقاذ صديقه

المشلول اليدين والرجلين في كرسي للمقعدين)، أو قال شيئاً مثل ذلك. لم ألق كبير انتباه له. ولكنني ألقيت الانتباه إلى المراوغة، والوقاحة في استخدام أخي لتبرير قتل الآخرين حين علمت أن بلدي كانت تحاول أن تمتلك خط أنابيب عبر أفغانستان للغاز وللنفط وأن أي شيء كنا سنقدم على عمله لن يكون للانتقام لموت أخي، بل للحصول على بعض الموارد التي يبدو أن هذه البلاد تعتقد أن الله تعالى يقول إنها يجب أن تملكها. وأنت تعرف، هناك شيء ما متشابه بين إدارتنا وبين القاعدة في قناعتها بأن الله تعالى هو إلى جانبها، ذلك مثير للضحك".

وكانت ريتا إحدى المؤسسات لمجموعة من المفجوعين سميت "عائلات 11 أيلول/سبتمبر من أجل مستقبلات سلمية". واقتبسوا هذا الاسم من خطاب ألقاه مارتن لوثر كنغ في العام 1967 وقال فيه إن "الحروب أزاميل مفلولة لنحت مستقبلات سلمية".

وحين بدأ بوش بقصف أفغانستان، عرفت أنه كان علي أن أذهب إلى هناك. كنت في السبعين من عمري في ذلك الوقت. ولم يسبق لي أن رأيت الحرب أبداً. وقال لي أخي الكبير إنه سيتبرأ مني إن أنا ذهبت. قال لي: (إذا كنت ذاهبة لتلقي عليهم قنبلة ذرية، فذلك رائع). ولكني ذهبت، وهو ما غير حياتي تغييراً كاملاً. أولاً وقبل كل شيء، حين نزلت من طائرة الأمم المتحدة في مهبط بديل، بدا لي وكأنني كنت أهبط على سطح القمر. كان كل شيء غباراً وأنقاضاً. ثم بدأت أقابل الناس الذين فقدوا أعضاء من عائلاتهم في قصفنا.

"قابلت الكثيرين جداً ممن فقدوا أحبابهم. قابلت امرأة التي فقدت كل عائلتها. كانت تقف في حقل وتبكي، وقالت إنها حملت رسالة إلى السفارة الأمريكية في كابول، تسعى فيها إلى الحصول على تعويض، وقالوا لها: (ابتعدي، أنت شحاذة.) يجب على كل أمريكي أن يذهب إلى المكان الذي تسقط فيه قنابلنا. في أفغانستان، كرم أفقر الناس في العالم غمرني، وأهدي إلي صندوق منحوت جميل كتب عليه (إلى ريتا) وكان من زوجة رجل، قصف حتى الموت، قبل أسابيع قليلة وهو مضطجع في الفراش. كيف تفسر هذا الكرم حين لا يكون له أي علاقة بالمال والمكانة والسلطة، إنهم من أفضل الناس تماماً؟"

مشيت مع ريتا عبر الشارع الأول إلى مكان مجاور لمحل بيرغر كنغ وفيه تناولنا فنجاناً من القهوة الحامضة. كان اليوم حاراً ورطباً، ورجال التوصيل وسائقو سيارات الأجرة يصدرون الأصوات في أبواقهم، والأولاد الراكبون للزلاجات يمرون بنا.

"هل تعتقدين أن الناس في الشارع سيتوصلون إلى مشاركتك وجهة نظرك؟"

"نعم، في نهاية المطاف سيتوصلون، نظراً إلى أنه لا يوجد بديل. وإذا كان هناك بديل، فأنا أود أن أعرف ماذا يكون. كل ما لدينا هو الوعد، كما قال نائب الرئيس تشيني، بحرب بلا نهاية"[67].

لحقت في الوقت المناسب برحلة طيران مكوكية إلى واشنطون، وكنت قد طلبت مواعيد مع الأعضاء القياديين في إدارة بوش. وكنت أريد أن أسألهم عن الألوف الذين لم يذكروا في التقارير والذين قتلوا في غزو أفغانستان، والآن يقتلون في العراق. وطلبت أن أرى دونالد رامسفيلد، وزير الدفاع، ولكنهم قالوا لي إنه لا يعطي الصحافيين أكثر من خمس دقائق. وكان هذا الإجراء، كما قالت متحدثته الصريحة، لضمان أنه لن يقول أي شيء قد يندم عليه.

وجميع الذين طلبت أن أراهم كانوا من "المحافظين الجدد"، وهي الصفة التي تطلقها الرطانة على الجمهوريين من أقصى اليمين الذين خدموا رونالد ريغان. وبصفتهم المؤسسين لتحالف يضم الأكثرية الأخلاقية المسيحية الأصولية، وجماعة الضغط (اللوبي) الصهيوني الداعية "لإسرائيل الكبرى"، و"مجلس النفط والغاز"، فهم يؤيدون الغايات الإيديولوجية التي يتغياها "مشروع من أجل قرن أمريكي جديد"، الذي انطلق في وثيقة تحديد للسياسة كتبها أعوانهم قبل مدة قصيرة من وصول جورج دبليو. بوش إلى السلطة في العام 2000. المفارقة الساخرة عند وضع ذلك قيد العمل، هي أن المنشق الإسرائيلي الكاتب أوري أفنيري وصف هذه الغايات وصفاً دقيقاً بأنها: "إمبراطورية عالمية أمريكية وإسرائيل الكبرى كذلك [تظهر من] صراع بين أبناء النور، وهم الولايات المتحدة وإسرائيل، وبين أبناء الظلام. وهم العرب والمسلمون"[68].

دوغلاس فيث، وكيل وزارة الدفاع وكبير المستشارين السياسيين لرامسفيلد في وزارة الدفاع، وافق على أن يراني. وهو شاب، ومسعر حرب صريح في إدارة ريغان، وكان قد عارض المعاهدة المضادة للصواريخ البالستية، ومعاهدة الحظر الشامل للتجارب، وميثاق الأسلحة الكيماوية وتأسيس المحكمة الجنائية الدولية.[69] وبصفته من دعاة سياسات الحرب في حزب الليكود في إسرائيل، كان قد عارض اتفاقية كامب ديفيد، وعارض في الحقيقة أي خطة من أجل وجود وطن قومي للفلسطينيين، لا بل عارض كلمة "فلسطين" نفسها.

هو ابن دالك فيث، العضو القيادي في منظمة باتار المتطرفة الصهيونية العسكرية، التي يلبس أعضاؤها أزياء بنية غامقة وينشدون أناشيدهم بشعارات نازية، وكان دوغلاس وأبوه قد كُرما من منظمة صهيونية من أقصى اليمين في أمريكا في العام 1997.[70] وفي العام 1982، استقال من مجلس الأمن القومي تحت ظلال من الاتهامات الموجهة إليه بأنه كان مرتبطاً بإسرائيل ارتباطاً حميماً أكثر مما ينبغي.[71]

أرجعه دونالد رمسفيلد إلى وضعه السابق في وزارة الدفاع في العام 2000، وأنشأ المكتب السري للخطط الخاصة الذي "تنافس" مع وكالة الاستخبارات المركزية عن طريق جمع "معلومات استخباراتية من مسار ثان" عن العراق، والكثير منها خيال فيه تلاعب من المؤتمر الوطني العراقي المغترب، الذي فقد الثقة الآن، وفيه تزييف معلومات قدمها الإسرائيليون. وهذا عزز الأساطير القائلة إن العراق كان يخطط لاستخدام أسلحة نووية، وكيماوية، وحيوية وإن له صلات مع القاعدة: تزييف معلومات – أكاذيب – يكررها ويندفع بها 10 دوانغ ستريت وتزود بها الصحافة البريطانية.[72]

وزارة الدفاع الأمريكية هي أضخم مجمع مكاتب مفرد في العالم، ويوظف ستة وعشرين ألف نسمة، وأحدهم العقيد مايك هَمْ. وهو شخص ممتلىء الجسم، ومضغوط، ومهموك سريع التأثر ويشبه الشخصية التلفازية في الخمسينيات من 1950 للرقيب بيلكو، ولكن من دون الفكاهة، وكان العقيد هَمْ مكلفاً بواجب

الموافقة على المقابلات مع كبار المسؤولين، والإشراف عليها، وإذا اقتضت الحاجة، قطعها.

وقال لي العقيد هَمْ، حرفياً، ونحن نمشي، على طول الممرات اللامعة للسلطة العسكرية الأمريكية: "لك عشرون دقيقة، لا أكثر". وكانت خطواتنا ترجع الأصداء حتى وصلنا إلى مكاتب هيئة رؤساء الأركان المشتركة، التي تَتَرَّف في سجادة زرقاء سميكة. وعلى طول الجدران، كان أمراء الحرب الأمريكيون المزدانون بالأشرطة والأوسمة ينظرون إلى الأسفل وهم صارمون، لطفاء، فارغون من أي انفعال، وكأنهم أغلفة نورمان روكويل* لصحيفة ساترداي إيفننغ بوست.

وقال لي العقيد هَمْ: "عشرون دقيقة، هل تفهم. لقد رفضت سبعين طلباً للمقابلات مع السيد فيث. واتفقنا، مع ذلك، على أن علينا أن نرى البريطانيين، رفاقنا في السلاح".

ومشينا إلى داخل حجرة بلا نوافذ مثل الزنزانة، وكانت عارية إلا من ثلاث "مساعدات" مسرحية: خريطة للعالم، وختم خشبي لوزارة الدفاع أكبر من المألوف وعلم الولايات المتحدة.

وقال لي العقيد هَمْ: "ستنتظر هنا، أتفهم؟ لا تتحرك إلى موقع آخر. ولا تتخط ذلك الباب".

وبعد انتظار طويل، سمعت همساً في خارج الباب الذي لا يمكن تخطيه. كان العقيد هَمْ وشخص آخر. وقال العقيد هَمْ: "نحن نحدد هذا، يا سيدي. ووضعنا هذا تحت سيطرة ملائمة". وبعد ذلك مشى إلى الداخل، وتبعه دوغلاس فيث، وهو رجل ذو نظرة مذهولة متوسط العمر في بزة مخططة تخطيطاً خفيفاً. جلس أمام الختم الكبير لوزارة الدفاع وعلى جانبه خريطة العالم والعلم الأمريكي، وواجهني وواجه العقيد هَمْ الذي وقف عند كتفي.

---

* نورمان روكويل (1894 – 1978) فنان رسام شارح أمريكي ظهرت معظم أعماله على غلاف ساترداي إيفننغ بوست ثم مجلة لوك. (المترجم)

وقلت له: "إن نائب الرئيس، تشيني، تكلم عن حربٍ على الإرهاب تدوم خمسين عاماً أو أكثر. ما الذي كان يعنيه بهذا؟"

"الفكرة في أن الحرب على الإرهاب يمكن أن تستمر طوال عقود من الزمان تشير إلى الحقيقة المتمثلة في أن هناك قسمين كبيرين للحرب. واحد منهما هو دمر ومزق: أي، مهاجمة الإرهابيين وبنيتهم التحتية... والثاني هو معركة الأفكار... مواجهة أنواع الأفكار التي تجعل الناس يعتقدون أن عليهم أن يكونوا إرهابيين، وأن الاستهداف العمد للمدنيين أمر جيد، وأخلاقي... وهكذا فإن من الحيوي الحاسم أن لنعمل نحن على تغيير الطريقة التي يفكر الناس بها، وذلك مشروع لمدة عقود".

"لماذا يكون من الخطأ بالنسبة إلى الحكام المستبدين وإلى الإرهابيين أن يقتلوا المدنيين الأبرياء ومن الصواب أو المعذور بالنسبة إلى الولايات المتحدة أن تفعل الشيء نفسه تماماً؟"

"الولايات المتحدة لا تستهدف المدنيين مثل ذلك. وجوهر الإرهاب هو أن الإرهابيين يمسحون هذا الفرق المهم للغاية بين المحاربين وغير المحاربين... قانون الحرب. ذلك الفرق أساسي، إنه ركن من أركان الحضارة".

"ذلك هو السبب الذي جعلني أطرح الموضوع، يا سيد فييث. لقد كنت في أفغانستان حديثاً وقابلت عدداً من الناس الذي فقدوا عدداً يصل إلى ثمانية أفراد من أسرهم لأنهم قصفوا بالقنابل من الطائرات الأمريكية التي استهدفت بيوتهم. ثلاثة آلاف نسمة ماتوا في 11 أيلول/سبتمبر، ولكن أكثر من هذا بكثير قتلوا منذ ذلك التاريخ على يد أمريكا. أليس هناك معيار مزدوج في ذلك؟"

"الأرقام التي تتحدث عنها مشكوك فيها".

"لماذا هي مشكوك فيها؟"

"أنا لا أقبل أننا قتلنا آلافاً من الناس الأبرياء..".

"هناك الآن الكثير من الدراسات التي تقترح [في أفغانستان وفي العراق] حوالي عشرة آلاف. من المؤكد أن الآلاف تبدو تقديراً منصفاً".*

"دعني أذكر هذا. إن ما تفعله قواتنا العسكرية يترك أثراً كبيراً. فالعسكريون يقومون دائماً بحسابات دقيقة حريصة تزن القيم العسكرية، والخطر الذي يتعرض له الناس الأبرياء. وهذه عملية دقيقة والنتيجة، كما هي الحالة في العراق، هي إنجاز عسكري ضخم مع وقوع ضرر قليل جداً للبنية التحتية المدنية وللناس الأبرياء".

"يا سيد فييث، هذا يبدو حسناً وأنت جالس هنا في واشنطون، وأما في العراق وفي أفغانستان، وهي خبرتي الحديثة، فهو ليس كما يبدو قطعياً".

وأمر العقيد هَمْ بالقول: "أوقف التسجيل! ودعني أعرف متى أوقفت الشريط. هل أوقفنا الشريط الآن؟ لم أكن تحت الانطباع بأن هذه المقابلة ستكون تصادم مواجهة".

وبدا الذي أجريت معه المقابلة مصدوماً. وقلت له: "يا سيد فييث، يبدو أنك مجهز تجهيزاً كاملاً لتجيب عن أسئلتي. وأنا مندهش من أن شخصاً على مثل مستواك يشعر أنه مذعور من الأسئلة المباشرة".

"أنا لست مذعوراً. ولست سلبياً لا أشارك أو زهرة جدار!"

وقال العقيد هَمْ، وكان قد شعر بعزلته: "أنا اتخذت القرار!"

"أنا لا أقابلك، أيها العقيد".

وقال العقيد "لقد كنت تصادم مواجهة".

وقال السيد فييث "ربما كان يلح..". وأضاف بنبل هازىء، "أنا مستعد للمتابعة".

---

* الدراسة التي تمت في العام 2004 وقامت بها الصحيفة الطبية البريطانية ذا لانسيت وجامعة هوبكنز في الولايات المتحدة قدرت أن 100.000 مدني على الأقل قتلوا في العراق، والأغلبية الساحقة على يد العمل العسكري الأنجلو – أمريكي (المؤلف).

وهكذا تابعت.

"يا سيد فييث، في أفغانستان، اصطنعت الولايات المتحدة مجموعة من أمراء الحرب الذين يعتبرون في السوء مثل طالبان. هل تصف أمراء الحرب هؤلاء بأنهم إرهابيون؟"

"لا أصفهم".

"وجد محققو الأمم المتحدة أن هؤلاء الناس مذنبون بارتكاب المجازر، والاغتصاب وكل أنواع الجرائم ضد الإنسانية".

"هناك أناس طيبون في مواقع القيادة. ولكنها حقيبة مختلطة تلك التي نعمل معها... وأنا أستطيع أن أؤكد لك أننا نعمل في اتجاه الديمقراطية في أفغانستان".

"مجلة تايم أجرت استطلاعاً للرأي العام في كل أوروبة، وسألت مائتين وخمسين ألف شخص عن أي بلد يرونها أعظم تهديد للسلام. ثمانية بالمائة قالوا العراق، وتسعة بالمائة قالوا كوريا الشمالية وثلاثة وثمانون بالمائة قالوا الولايات المتحدة. هل تتفهم هذا الخوف؟"

"حسناً، تاريخنا كتاب مفتوح، تاريخ يستطيع الأمريكيون أن يكونوا فخورين به، والناس حول العالم يعجبون به. دورنا في العالم لم يكن اغتصاب الأشياء التي لا تنتمي لنا. دورنا لم يكن أن نستعبد ونستعمر. لقد صرنا قوة كبيرة من أجل ترويج الاحترام لكل بني البشر وللمبدأ الذي يرى أن كل البشر خلقوا متساوين. نحن لاعب رحيم قد ساعد على تحرير البلاد..".

"وكيف ينسجم ذلك مع التهديدات الأمريكية المستمرة والهجمات على البلدان الأخرى، من أفغانستان إلى العراق، وسورية، وإيران وكوريا الشمالية؟"

"هذه البلدان العصبية لا ينبغي لها متابعة الحصول على أسلحة التدمير الشامل".

"ألم تنحدر كل مسألة أسلحة التدمير الشامل إلى مهزلة؟"

"نحن نرى الإيرانيين [يبنون] برنامجاً نووياً. ونحن نرى الكوريين الشماليين يتبرؤون من معاهدة عدم الانتشار..".

"حكومتا الولايات المتحدة وبريطانيا كذبتا علينا بشأن أسلحة التدمير الشامل في العراق. فلماذا يجب علينا أن نصدقكم؟"

"أنا لا أعتقد أن ذلك كان كذباً. لقد ذهبنا إلى الحرب في الجزء الأكبر بسبب قلقنا من أن أسلحة التدمير الشامل في يدي نظام حكم صدام حسين، وهو نظام استخدم غاز الأعصاب..".

"... والذي كان مورداً إليه من الولايات المتحدة وبريطانيا".

"لا. ذلك غير صحيح".

"نعم، إنه صحيح. معظم أسلحة صدام حسين للتدمير الشامل لم تصنع من قبله. والأدوات الآلات والمواد الداخلة في أسلحته الحيوية كلها جاءت من بلدان أخرى، والكثير منها جاء من الولايات المتحدة ومن بريطانيا".

"أنا لا أعتقد أن ذلك صحيح".

"إنها في السجلات. انظر فقط في مكتبة مجلس الشيوخ".

"يجب عليك أن تفهم التهديد الموجه إلى الولايات المتحدة، التهديد..".

"ولكن بالتأكيد فإن أكبر تهديد، وأكبر مصدر لأسلحة التدمير الشامل، هو هنا تماماً في الولايات المتحدة؟"

"أنا لست متأكداً أنني أفهم سؤالك".

"شكراً لك، يا سيد فييث"[73].

على الجانب الآخر من واشنطون توجد وزارة الخارجية، الجهاز الإداري (البيروقراطية) للسيادة المطلقة الأمريكية. كان لي موعد مع جون بولتون، الذي كان لقبه، وكيل وزارة الخارجية لضبط الأسلحة وللأمن الدولي، وكان هذا

العمل خلقاً أورويلياً* من إدارة بوش، وكانت وظيفته هي بشكل واضح نقيض اسمه هذا. وربما يكون جون بولتون أخطر المحافظين الجدد وأشدهم اندفاعاً، فهو وحده من دون مساعدة قاد الولايات المتحدة في مسار إلى الحرب النووية مع كوريا الشمالية.

وبولتون هو من صنع أقصى اليمين نفسه من الحزب الجمهوري. وبصفته محامياً في وزارة العدل تحت رونالد ريغان، روّج للغايات الإيديولوجية للمجتمع الفيدرالي المبهم. وكانت هذه الغايات من أجل "دحر" "السيطرة" المفترضة "للمؤسسة الليبرالية" على السلطة القضائية. وبتقدمه إلى معهد المشروع القومي، وهو مجموعة مصالح وضغط متطرفة من الجناح اليميني، عارض بولتون مبدأ الاتفاقية الدولية نفسه. وقال: "ليس هناك شيء اسمه الأمم المتحدة. هناك مجتمع دولي يمكن أن يقاد بالقوة الفعلية الوحيدة الباقية في العالم، وتلك هي الولايات المتحدة، حين يناسب ذلك مصالحنا وحين نستطيع أن نجعل الآخرين يتحركون معنا... وإذا فقد مبنى الأمم المتحدة في نيويورك عشرة طوابق، فلن يؤدي ذلك إلى أي تغيير طفيف"[74] ومع ذلك، فإن عداوته للأمم المتحدة لم تمنعه من الدعوة إلى غزو العراق بسبب إخفاقه المزعوم في احترام قرارات الأمم المتحدة.

وبولتون المعروف باسم "قاتل المعاهدات"، مسؤول إلى حد كبير عن انسحاب إدارة بوش من معاهدة مضادة الصواريخ البالستية وتبنيها "درع" صواريخ "حرب النجوم"، التي كان الغرض منها إعطاء الولايات المتحدة "هيمنة الطيف الكامل". وعارض بولتون اتفاقيات حظر الأسلحة الكيماوية والحيوية والحد من انتشار الأسلحة الصغيرة. وفي خطاب له بعنوان "ما وراء محور الشر" زعم، من دون دليل، أن كوبا كانت تطور أسلحة حيوية وتتقاسم بحوثها مع أعداء أمريكا، وهو زعم حقق فيه واستبعده الرئيس السابق جيمي كارتر. وتخلى عن أي دور أمريكي في المحكمة الجنائية الدولية و"احتفل"، كما عبر هو عن ذلك، بموت معاهدة الحظر

* نسبة إلى جورج أورويل (1903 – 1950) كاتب بريطاني نبه إلى خطورة الحكم المطلق، واهتم بالعدالة الاجتماعية. أشهر كتبه رواية مزرعة الحيوان ورواية 1984. (المترجم)

الشامل على التجارب، في التجارب النووية تحت الأرض. وقال عضو مجلس الشيوخ جيس هيلمز وهو أقدم اليمين القمري " إن جون بولتون هو نوع الرجل الذي أود أن أقف معه في آرمجدون، إذا كان قدري أن أكون حاضراً من أجل ما هو متنبأ له أن يكون المعركة النهائية بين الخير والشر في هذا العالم.

وبولتون رجل له مظهر لافت للنظر، وله شارب يتدلي مثل شارب زاباتا* من طراز السبعينات من 1970 ويلبس خصلة من شعر مستعار قديمة الطراز بشكل غريب، وقد تحركت للأسفل بشكل محسوس على جبهته في أثناء مقابلتنا. وبدأت بأن قرأت له مديح جيس هيلمز له بوصفه "رجل آرمجدون".

وقال: "أنا أشعر جداً بالرضا".

"لقد مددت تعريف الرئيس بوش (لمحور الشر) إلى عدد من البلدان الأخرى. كيف تقسم أنت وزملاؤك العالم بين الخير والشر؟"

"أولاً، نحن نحدد من أي مكان كما نعتقد يأتي أخطر تهديد إلى حريتنا. ونحن نعرف أن التهديد يأتي من أسلحة التدمير الشامل: من الأسلحة الكيماوية، والحيوية، والنووية، ومن وسائل توصيلها".

"ولكنك عارضت معاهدة لتحديد هذه الأسلحة".

"تلك المعاهدة كانت موجهة إلى الولايات المتحدة، وليس إلى الدول المارقة".

"الولايات المتحدة استثنائية؟"

"نعم".

"كثيرون الآن يعتبرون الولايات المتحدة دولة مارقة".

---

* إميليانو زاباتا (1879؟ – 1919) رجل ثوري مكسيكي قاد ثورة (1910 – 1919) من أجل الإصلاح الزراعي، وفي أثناء ذلك احتل مدينة مكسيكو سيتي ثلاث مرات. (المترجم)

"حسناً، إنهم على خطأ صريح لا غير. لقد فعلنا عبر تاريخنا لننشئ ظروفاً يستطيع فيها الأفراد أن يكونوا أحراراً حول العالم أكثر من أي بلد آخر في التاريخ".

"دعنا نعد ثانية إلى الخير والشر. خذ أفغانستان. لقد وصف الطالبان بأنهم شر، وهو أمر مفهوم، ولكن أمراء الحرب، الذين يعتبرون على الدرجة نفسها من السوء، لا يعتبرون على الدرجة نفسها من الشر هنا في واشنطون. لماذا؟"

"أفغانستان بلد صعب. ونحن لا نتوقع الديمقراطية الجفرسونية أن تنبع هناك بين عشية وضحاها. ولكني أؤكد لك: نحن لا نمول أمراء الحرب".

"نعم، أنتم تمولونهم، ومازلتم تفعلون ذلك طوال خمسة وعشرين عاماً".

"نحن ساعدنا المجاهدين حين كانوا يقاتلون الاتحاد السوفيتي".

"إنهم أمراء الحرب أنفسهم، والمساعدة لم تتوقف أبداً. وفي العام 2001، كانت وكالة الاستخبارات المركزية ترشيهم ليوقفوا مقاتلة أحدهم الآخر وليطيحوا طالبان. فإذا كان الطرفان يقترفان جرائم مروعة فلماذا يصنف جانب واحد فقط بأنه شر؟"

"إن تركيز المساعدة الأمريكية اليوم يقصد إلى إنشاء حكومة مركزية فعالة في أفغانستان. نحن لسنا في موقف نناقش فيه من هو الشر. إنه ليس قضية".

"في ذهني أسامة بن لادن، الذي هو بالتأكيد مثال أمريكا الأعلى للشر. هو جاء من المجاهدين، وهم الذين كانوا مدعومين من الولايات المتحدة".

"دعنا نكن واضحين بشأن ما الذي كنا ندعمه. نحن كنا نوفر المساعدة للمجاهدين إلى أن انسحب الاتحاد السوفيتي. إن أسامة بن لادن مثل سلالة مختلفة، كان جزءاً من المقاومة ضد السوفيت، نعم، ولكن كان لديه جدول أعمال مختلف. والفكرة القائلة بأننا بطريقة أو بأخرى مسؤولون عن أسامة بن لادن هي فكرة غير صحيحة تاريخياً على نحو غير عادي".

"لقد خرج من الدعم الضخم الذي أعطته الولايات المتحدة إلى الأصوليين الإسلاميين الذين كانوا يقاتلون شراً آخر مقدراً من أمريكا، وهو الاتحاد السوفيتي".

"نعم، نحن أعطينا دعماً لتنويعة من الفئات السياسية، وبعضهم كانوا أصوليين.ولكننا لم نكن نقصد أبداً أن نقويهم. ومأساة أفغانستان هي الفوضى، إنها الفوضى التي نتجت بعد انسحاب السوفيت".

"في يوم سابق قريب، وعدت أنت أن تكشف دليلاً مقنعاً عن إنتاج العراق لأسلحة التدمير الشامل. أين الدليل؟"

"لا أعتقد أنني قد سبق لي أن وعدت بالكشف عن دليل. ما نعرضه نحن الآن هو أن نظام حكم صدام حسين كان متصلاً اتصالاً لا سبيل إلى الخلاص منه مع القدرة على استخدام أسلحة التدمير الشامل، ومن جملتها الأسلحة النووية".

"بحسب ما قاله الرئيس بوش، فإن الولايات المتحدة غزت العراق لأن العالم كان مهدداً بأسلحة العراق للتدمير الشامل".

"لم يكن هو السبب مطلقاً. لقد جاء التهديد من نظام حكمه الاستبدادي".

"وهكذا فإن كل تلك البيانات الواضحة من بوش وبلير حول تهديد خلال خمسة وأربعين دقيقة من العراق، على سبيل المثال، ... لم تكن هي السبب؟"

"لم تكن هي الفرضية التي ذهبنا بناء عليها إلى الحرب، ذلك صحيح، نعم، ذلك صحيح... ذلك صحيح".

"لقد أطلقت أنت عدداً من التهديدات ضد كوريا الشمالية. هل هي الهدف التالي؟"

"أي تهديدات! عددها!"

"حسناً، لقد هددت بما تدعوه منع* سفن كوريا الشمالية. وقد قلت عدة مرات وأنت تستخدم لغة مستورة، طبعاً، إن كوريا الشمالية سوف تهاجم، إذا لم تفعل ما يقال لها".

"ما قلناه هو أننا مستعدون، مع البلدان التي تتفق معنا في الرأي، أن نتخذ إجراءات لمنع شحنات أسلحة التدمير الشامل أو الصواريخ البالستية في البحر، وفي الجو وعلى الأرض، حيث نمتلك السلطة لفعل ذلك".

"ومن سيعطيكم تلك السلطة؟"

"هذه مسألة للنقاش".

"ألا يمكن لذلك أن يطلق زناد حرب نووية؟"

"أنا لا أعتقد أن هناك أدنى فرصة بأن ذلك سيحدث..".

"ولكنك إذا أوقفت السفن، أليس هناك أكثر من صدى خفيف لما حدث تقريباً، في العام 1962، في أزمة الصواريخ الكوبية؟ أليس هناك خطر أن الكوريين الشماليين سيتحركون للدفاع عن أنفسهم ضد قوة كبيرة بوسيلتهم الوحيدة، وهي أسلحتهم النووية؟"

"لقد أوقفنا واحدة من سفنهم، السون سان، ولم يفعلوا شيئاً في رد الفعل".

"وماذا لو اتخذوا عملاً في المرة القادمة؟"

"ونحن لا نستطيع أن نحتمل ألا نمنعهم. فكر بالمدنيين الأبرياء الذين سيموتون إذا انتظرنا غيمة فطرهم لتحدث".

"أود أن أسالك عن المدنيين الذين ماتوا في أفغانستان والعراق..".

---

* المنع في السياق العسكري هو "فعل يهدف إلى تحويل الإمكانية السطحية العسكرية للعدو، أو قطعها، أو تأخيرها، أو تدميرها قبل أن تستخدم استخداماً فعالاً ضد قوات صديقة". والمنع الجوي هو "العمليات الجوية المنفذة لتدمير إمكانية العدو العسكرية أو تحييدها أو تأخيرها قبل أن تستخدم ضد القوات الصديقة..". (المترجم).

" لقد كان أحد الأمور المذهلة بشأن النصر السريع للتحالف [في العراق] هو كم كان الضرر الذي أوقع للبنية التحتية العراقية قليلاً، وكم كانت الإصابات منخفضة".

"حسناً، إنها عالية جداً إذا كانت عشرة آلاف مدني".

"حسناً، أنا أعتقد أن ذلك منخفض جداً إذا نظرت إلى حجم العلميات العسكرية التي تولينا القيام بها".

"عشرة آلاف وفاة منخفضة...؟"

"بالتأكيد هي كذلك".

وقف وحل مسكة سماعة الميكرفون وثبت خصلة الشعر المستعار.

وقال لي: "قل، هل أنت عضو في حزب العمال البريطاني؟"

"لا، إنهم الآن المحافظون في بريطانيا".

"وإذاً، فأنت شيوعي؟"

"لا".

"حسناً، ما أنت؟"

"شكراً يا سيد بولتون".

وليام كريستال هو محرر نيوستاندرد، وهي مجلة تصدر من واشنطون ويملكها روبرت مردوخ وتعتبر الصحيفة البيت للمحافظين الجدد. وكريستال هو مؤلف الوثيقة الرئيسية لمشروع من أجل قرن أمريكي جديد، الذي يتقاسم كريستال مكاتبه خلف أبواب كالقناطر. قصير في القامة ومتورد الوجه، يجلس على مكتب يطل عليه تمثال نصفي لصدام حسين ومقالة مؤطرة من مجلة فرنسية وعنوانها، "أمريكا: بعد العراق، العالم!" وعلى الجدران صور له هو مع أبطاله، رونالد ريغان ومرغريت تاتشر، وها هو جالس مع نائب الرئيس دان كويل، الذي

عمل كريستال له. وفي أثناء مقابلتي قد انزلقت بعيداً أي فكرة بأن المحافظين الجدد يمتلكون قاعدة فكرية، أكثر مما هي قاعدة عاطفية وإيديولوجية عميقة. وسألته ماذا عنى باسم "قرن أمريكي جديد".

"ما هو؟ ما هو؟ إنه القوة الأمريكية والاجتراء الأمريكي نيابة عن المبادئ الأمريكية التي تقدم الحرية والديمقراطية..".

"أليس هو أكثر من ذلك؟ وثيقة السياسات، التي عاونت أنت في كتابتها، وتشير إلى أمريكا بوصفها (الخيالة على جبهة جديدة والتي ستقاتل وتربح على نحو حاسم حروباً كبيرة متعددة، ومتزامنة.) ماذا يعني هذا؟"

"إنها تقول إننا نحتاج إلى القوات العسكرية الكبيرة على نحو كاف لتقاتل في العراق وفي أفغانستان وتعالج تهديدات كوريا الشمالية وفي كل أنحاء العالم".

"على مكتبك أطّرت مقالة من مجلة فرنسية مع عنوان رئيسي، (أمريكا: بعد العراق، العالم!) "

"تلك نكتة صغيرة".

"هل هي صحيحة؟"

"أفغانستان والعراق هما بداية فقط للتهديدات التي يجب علينا أن نعالجها. وسيكون من الحمق أن نظن، أننا نستطيع، بعد أن حررنا هذين البلدين، أن نعود إلى افتراض أننا محميون بالمحيطين الأطلسي والهادئ".

"أليس هذا هو الذهان الهذائي (بارانويا)؟"

"ذلك سخف مضحك".

"أو هو عذر وسواس الذهان الهذائي من أجل التدخل في بلاد أخرى؟"

"وذلك أيضاً سخف مضحك".

"أنت تسمي نفسك أمريكياً استعمارياً، هل ذلك صحيح؟"

"لا، ولكن إذا كان ما نعمله يبدو استعمارياً، فليكن كذلك... والمشكلة مع أمريكا ليست في أننا نذهب للغزو والنهب حول العالم، نفرض أنفسنا. المشكلة مع أمريكا منذ نهاية الحرب الباردة هي أننا كنا حتى الآن أبطأ مما ينبغي في الوصول إلى الانغماس في النزاعات. كثيرون من الناس ماتوا، ومئات الآلاف قتلوا، لأن الأمريكيين مكثوا في وطنهم. والمشكلة التي يجب على الأوروبيين أن يقلقوا بشأنها هي أن الأمريكيين سيعودون إلى الوطن".

"الناس في كل أنحاء العالم قلقون لأن الولايات المتحدة تدير هجمات من دون وجود استفزاز على بلدان ذات سيادة ".

"هل يفعلون؟ هل يفعلون؟"

"نعم، يفعلون".

"حقاً، هل نحن سنهاجم بريطانيا، وفرنسا، وألمانيا؟ أي ديمقراطية؟ أي نظام حكم محترم؟"

"حسناً، الولايات المتحدة لا تهاجم عادة البلدان القوية".

"هل نهاجم بلدانا محترمة؟"

"قلت بلداناً قوية".

"هل الناس فعلاً قلقون من أن الولايات المتحدة ستذهب إلى بلد محترم، يلتزم بالقانون وسنأتي إليه ونقول: (نحن لا نحب منظركم، ونحن سنقوم بإطاحتكم.) هل ذلك ما فعلته الولايات المتحدة كثيراً جداً؟ كم عدد البلدان التي هاجمتها الولايات المتحدة في الخمسة عشر عاماً الماضية؟"

"حسناً، منذ الحرب العالمية الثانية، كان هناك اثنان وسبعون تدخلاً من الولايات المتحدة".

"أوه، هل ذلك صحيح؟"

"نعم".

"ذلك غريب مضحك"

"ليس غريباً مضحكاً، إنه صحيح".

"إنه ليس صحيحاً. إنه بيان أحمق وسخف مضحك".

"إنه حقيقة. كان هناك اثنان وسبعون تدخلاً، ومن جملتها إطاحة حكومات كانت ديمقراطيات اجتماعية انتخبت انتخاباً ديمقراطياً، من النوع الذي قد تصفه بأنه محترم، من مثل الحكومات المنتخبة في غواتيمالا، والبرازيل، وإيران، وتشيلي، إذا سمينا قلة منها فقط... الآخرون كانوا ببساطة حائلاً في طريق المخططات الأمريكية".

"وهكذا فما تقوله هو أنه لا يوجد تمييز يمكن ضبطه بين الاحترام واللااحترام؟"

"لا. كثيرون من الناس الآن يعتبرون نظام الحكم الحالي في واشنطون نظاماً غير محترم، ولكن ما من أحد سيهاجمه، هل يفعلون؟"

"غريب مضحك..".

"ما الذي يعطي الولايات المتحدة الحق لتقرر مسائل الحياة والموت حول العالم: أي بلد يكون محترماً، وأي بلد سيهاجم أولا يهاجم؟"

"عن أي بلدان تتحدث أنت؟"

"أفغانستان والعراق".

"إذاً ذلك هو المجموع الكلي للحروب الأمريكية العدوانية، أهي تلك؟"

"بلدان هوجما في عامين: سجل ليس سيئاً"

"إنهما حربان اثنتان جيدتان".

"ذلك أكثر مما فعلته معظم البلدان..".

"إنهما لكذلك وأنا فخور جداً بأن أمريكا كانت قادرة على فعلهما".

في السنوات التي كنت أجيء فيها حتى الآن إلى واشنطون، تعلمت أن أحترم مجموعة من الأمريكيين المتفردين من مطلقي صافرات الإنذار لكشف الأخطاء. وهؤلاء ضباط سابقون من وكالة الاستخبارات المركزية الذين "استداروا"، وغيروا مواقفهم وتحدثوا علناً ضد مكائد أمريكا السرية في العالم. ليس كل هؤلاء خونة مرتدين، فبعض منهم ترك وكالة الاستخبارات المركزية مصحوبين بالاستحسان الحماسي من مؤسستهم، ولكن شيئاً ما كان قد حدث قبل تركهم مؤسستهم وغيّرهم. فبعد أن كانوا قد التحقوا بالوكالة بإحساس من المثالية نحو "خدمة لبلدي"، فهم يغادرونها مع "عبء على الضمير ومطالب منه" كما وصف ذلك أحدهم.

في العام 1981، قام رالف ماكجيهي، وهو المتسلم لأعلى وسام تقدير من وكالة الاستخبارات المركزية، بكشف حرب فيتنام بوصفها سلسلة من "الخدع القاتلة" استخدمت لتبرير الغزو الأمريكي.[78] وفيليب ليكتي، الذي كان ضابط عمليات سابق لوكالة الاستخبارات المركزية في قاعدتها في جاكرتا، كشف كيف أن الرئيس جيرالد فورد ووزير خارجيته، هنري كيسنغر، كان قد أعطى الضوء الأخضر لحاكم إندونيسيا المستبد سوهارتو لغزو تيمور الشرقية في العام 1975، وكان في حينها يقوم سراً بتسليح قواته الغازية.[79]

وراي ماكغفرن أيضاً ترك وكالة الاستخبارات المركزية مصحوباً بالثناء العالي من رؤسائه، وبشكل لافت للنظر من جورج بوش الكبير، الذي كان في ذلك الوقت رئيساً. وهو يتحدث الروسية بطلاقة، وكان رئيس فرع السياسة السوفيتية الخارجية، في إدارة الاستخبارات، في السبعينيات من 1970 قبل أن يصير مؤلف الموجز الاستخباراتي اليومي للرئيس. حين وصل جورج دبليو. بوش إلى السلطة، قام ماكغفرن بالتحذير من خطر "المجانين".

سألته: "ماذا عنيت بالمجانين؟"

"عنيت الناس الذين يديرون إدارة جورج دبليو. بوش. يجب عليك أن تفهم كم هم مختلفون. وهم يحملون مجموعة من المعتقدات تشبه كثيراً تلك المعتقدات التي تم التعبير عنها في كتاب كفاحي، إنها كلها مبثوثة ومطروحة هناك. والمشروع من أجل قرن أمريكي جديد يجعل الأمر واضحاً وضوحاً كاملاً وهو أنه حين أنتج بول وولفوويتز أول وثيقة له في الموقف الدفاعي في العام 1991، كانت متطرفة جداً إلى درجة جعلت الجنرال [برينت] سكوكروفت، مستشار الأمن القومي، وجيم بيكر، وزير الخارجية، يبتلعان بمرارة، وذهبا إلى الرئيس (بوش الكبير) وقالا له: (يجب علينا ألا نسمح بهذا، ويجب علينا أن نضع هذا في الملف الدائري أي في سلة المهملات،) وفعل الرئيس ذلك بدقة. والآن نحن لدينا ابن الرئيس مأسور من هؤلاء المؤيدين لإيديولوجية فكر معين، وهؤلاء هم أنفسهم الذين كان يشار إليهم في الدوائر التي تحركت فيها، في القمة، بصفة (المجانين). فأنت تكلمت آنئذ عن (المجانين) وعرف كل واحد من كان هؤلاء: ريتشارد بيرل، وبول وولفويتز، ودوغ فيث.."

"من أشار إليهم بصفة (مجانين)؟"

"جميعنا".

"في وكالة الاستخبارات المركزية؟"

"نعم. دوائر السياسات، ودوائر الاستخبارات كذلك".

"القول المبتذل بأن 11 أيلول/سبتمبر غيرت كل شيء؟ هل ذلك رأيك؟"

"لا، ولكن الحدث كان تعزيزاً لا يكاد يصدق لما أراد المجانين أن يفعلوه. كان يجب أن يكون رد فعلنا عملاً من أعمال الشرطة. وبدلاً من ذلك، لعب المجانين على مخاوف السكان، وأدخلوا عناصر الانتقام الكريهة، من أجل أن يهلك في الهجوم على أفغانستان من الناس على الأقل قدر العدد الذي هلك في 11 أيلول/سبتمبر. وكل شيء تبع كان علاقات عامة، ودعايات سوداء. لقد أظهرت هذه الإدارة نفسها بكونها ماهرة في هذا العمل مهارة لا تكاد تصدق. انظر إلى الطريقة التي ربطوا فيها صدام مع

القاعدة، إنها مهمة ضخمة تحت الظروف العادية، نظراً إلى أنه لم يكن هناك أي علاقة، ولكن 11 أيلول/سبتمبر سمحت لهم بتحقيق ذلك".

"هل هناك دليل على أن الكثير من هذا كان مخططاً له قبل 11 أيلول/سبتمبر؟"

"نعم، هناك دليل في وثائق رأيتها أنا. وبعضها يقول في الواقع إن ما يفعلونه هو عملية طويلة الأمد، خطة إستراتيجية، ويمكن أن يكون هناك أحداث متداخلة ستكون بركات كبيرة وسوف تسرّع تنفيذ خططهم، وإن 9/11 كان بالضبط هو ذلك النوع من الحدث البركة. والآن، أنا لست شخصاً من نوع القائل بوجود مؤامرة ولذلك فأنا أتجنب الكثير من نظريات المؤامرة التي تروج حولنا".

"بعد أن قضيت الكثير من حياتك في وكالة الاستخبارات المركزية، لابد أنك تكن الاحترام للمؤامرة؟"

"أكن لها بالفعل. فأنت إذا نظرت إلى الوراء إلى اغتيال الرئيس كينيدي ومارتن لوثر كينغ، يجب عليك أن تحترم عنصر المؤامرة. لقد قرأت دليلاً مقنعاً بأن إدارة بوش هذه كانت تعرف الفصل والآية، أي التفاصيل الكاملة لما كان يحدث بشأن 11 أيلول/سبتمبر وسمحت له أن يحدث. وأنا آخذ بالتفسير الخيّر بأن الحدث كان نتيجة عدم كفاءة فاضحاً".

"هل الحرب على الإرهاب خداع؟"

"أعتقد أن مخادعة كلمة ليست قوية قوة كافية. إن كوننا في حرب لا يمكّننا فقط أن نرمي وزننا حول العالم في الخارج بل يمكننا أيضاً أن نفرض ضوابط على نحو ضيق شديد جداً على أولئك الذين قد ينشقون ونصبغهم بصبغة غير الوطنيين. وذلك هو ما حدث".

"هل كانت حادثة أسلحة التدمير الشامل مجرد تمثيلية ألغاز كلمات؟"

"كانت تمثيلية ألغاز كلمات بنسبة خمسة وتسعين بالمائة".

"كيف تهربوا من العواقب واللوم؟"

"الصحافة سمحت بالهرب من العواقب واللوم. وإليك هنا مثالاً واحداً. لقد طلب مني أن أكون في فوكس نيوز لمناقشة أسلحة التدمير الشامل. وقال لي المذيع المقابل: (الآن، يا سيد ماكفرن، لقد أكملنا قبل قليل استطلاعنا للرأي هنا وهذا يظهر أن سبعة وستين بالمائة من الشعب الأمريكي لا يهمه سواءً أكتشِفت أسلحة التدمير الشامل، أم لم تكتشف. فلماذا تهتم أنت إذاً؟(وقلت له:" سيدي، يجب عليك فعلاً أن تسأل نفسك لماذا لا يهتم سبعة وستون في المائة. ولماذا لا تقول فوكس نيوز ورفاقك في البقية من وسائل إعلام التيار الفكري العام للشعب الأمريكي ماذا يحدث؟ كيف يستطيعون أن يهتموا إذا كانوا لا يعلمون)؟"

"هل الأمريكيون واعون للدور المهم الذي لعبته الولايات المتحدة في دعم أسامة ابن لادن والدور الذي لعبته وكالة الاستخبارات المركزية، ويعود في الزمن إلى عهد الرئيس كارتر؟"

"مرة أخرى، كيف يستطيعون أن يكونوا واعين إذا كانت حكومتهم لا تثقفهم؟ ووسائل الإعلام لديها بشكل مساو حافز بدرجة صفر لأنها ملحقة، وأسيرة، ومروضة محلياً بشكل كامل نتيجة رغبتها في أن تخدم لا الحكومة فقط، بل والشركات التي تملك تلك الوسائل".

"هل أنت قلق بشأن سياسة الهجوم الاستباقي؟ وإلى أين ستقود؟"

"أنا قلق بشأنها قلقاً كثيراً جداً. نحن حسبنا أننا تركنا التهديد النووي خلفنا مع نهاية الحرب الباردة، ولكن الرئيس بوش وفي الحقيقة رئيس الوزراء بلير الآن قالا إنهما راغبان في النظر في ضربات استباقية بأسلحة نووية. إن هذا شيء ما حقيقي... أن التهديد النووي اليوم سينظر إليه بوصفه قادماً أولاً وقبل كل شيء من الولايات المتحدة الأمريكية ومن بريطانيا العظمى... لو كنت أنا كورياً شمالياً فسأكون قلقاً جداً، جداً".

"كتب نورمان ميلر في يوم قريب أنه يعتقد أن أمريكا قد دخلت في الحالة ما قبل الفاشية. ما هو رأيك في ذلك؟"

"حسناً، وأنا لا أقول هذا لأكون متهكماً، ولكنني آمل أن يكون محقاً، وذلك لأن هناك آخرين يقولون إننا قد صرنا من قبل الآن في مزاج فاشيستي. حين ترى من الذي يسيطر على وسائل الإنتاج هنا، وحين ترى من هو الذي يسيطر على الصحف والدوريات، ومحطات التلفزة، التي منها يستقي الأمريكيون أخبارهم، وحين ترى كيف تجري إدارة ما تدعى حرب على الإرهاب، فإنك تبدأ بفهم المسار الذي نتجه نحوه. وكان لدى جوزيف غوبلز هذا القول المأثور وهو أنك إذا قلت شيئاً ما مرات كافية، فإن الناس سيبدؤون بتصديقه، وتلك الإستراتيجية طبقت بنجاح كبير على أيدي هذه الإدارة...أسلحة التدمير الشامل، القاعدة، علاقات العراق، والأدلة الأخرى التي استنبطت لتبرير حرب من دون استفزاز... وهكذا نعم، نحن جميعنا يجب أن نكون قلقين بشأن الفاشية"[80].

في شهر كانون الثاني/يناير من العام 2003، أسس راي ماكغفرن وضباط استخبارات سابقون المحترفون الاستخباراتيون القدامى من أجل سلامة العقل. وتضم هذه الجماعة الآن أكثر من خمسة وأربعين ضابطاً كبيراً سابقاً من وكالة الاستخبارات المركزية، ووكالة استخبارات الدفاع، ومكتب وزارة الخارجية للاستخبارات والبحوث، واستخبارات الجيش، ومكتب التحقيقات الفيدرالي، ووكالة الأمن القومي والوكالات الاستخباراتية الأخرى. وكان هذا الفعل فعل تمرد غير مسبوق من الداخل.

وفي 5 شباط/فبراير من العام 2003، أرسل الضباط المنشقون ورقة، بعنوان "مذكرة إلى الرئيس"، إلى البيت الأبيض. وكانت تدميراً لخطاب وزير الخارجية كولن باول أمام مجلس الأمن في الأمم المتحدة في ذلك اليوم، والذي كذب فيه باول بالقول إن الاستخبارات قد "برهنت" أن صدام حسين امتلك أسلحة التدمير الشامل. واشتكت الورقة بشأن "تسييس" الاستخبارات التي رافقت "قرع الطبول للحرب"[81].

وقال راي ماكغفرن: "وقلقنا هو أن هذا ليس إلا البداية: وأننا قد فقدنا السيطرة من قبلُ".

غادرت أفغانستان "المحررة" في يوم ليس غير نموذجي. فحين تحركت سيارتي إلى مطار كابل، كانت سيارة ركاب تحمل جنوداً ألمانيين من القوة الدولية للأمن والمساعدة (إيساف)، على مسافة ميل أمامنا، قد نسفت، وقتل ستة. من الذي فعل هذا؟ هل كان أحد "بقايا" طالبان؟ أم كان "قائداً إقليمياً"، واحداً من الحلفاء الجدد للغرب، وكان يعبر عن استيائه السري؟ وفي المشهد، التقانة الغربية العسكرية، طائراتها العمودية تئز، والعربات المدرعة والأسلحة الآلية، كلها عرضت القوة وعجز القوي معاً، وهي تستنقذ سيارة الركاب المسودة تاركة خلفها بركاً من الدم على غبار الطريق.

الألمان هم الذين كانوا يديرون مطار كابل، وكانوا قد استشاطوا غضباً إلى درجة شديدة قاموا معها بإغلاق المطار ونصبوا رشاشاً على المدرج الرئيسي فيه. وبدت الفوضى في المخرج النهائي المهترىء للمبنى عالماً مصغراً يمثل الحياة في الخارج. وحين فرضت حرارة منتصف النهار نفسها واستشعرها الناس، بدؤوا يكافحون من أجل الحصول على مكان والجلوس فيه. والخطوط الجوية الأفغانية أريانا، وزعت وجبات طعام ملفوفة بورق معدني وقد انتهى تاريخ صلاحية الوجبات للأكل منذ وقت بعيد، والعديد من هذه الوجبات سقط على الأرض الإسمنتية، وترك خلفه سطحاً زلقاً من المرق البني المندلق من الوجبات. وفي الخارج، وقفت طائرتان قديمتان من نوع إيرباص جنباً إلى جنب وكانت إحداهما قد أكلت أختها لأن مخروط الأنف في المأكولة أخذ منها ليكون قطعة غيار للأخرى "لعلها تطير"، حسب ما قال الطيار المغتم.

بعد إعلان أخطأت فهمه وحسبته نداء إلى الصلاة، تلا نتيجة لذلك تدافع إلى الطائرة. وهناك بقينا وقد هبط الليل. لقد رفض الألمان أن يتزحزحوا قيد أنملة من وراء رشاشهم. وطائرتنا، التي كانت تعمل في الماضي في الخطوط الداخلية في الهند، كانت وعلى نحو مرئي تتساقط إلى مزق: فقلائد من الهيكل الخارجي تتدلى في

المقصورة، والمقاعد مكسورة الظهر، وأبواب المغاسل كانت قد استسلمت منذ وقت طويل، تاركة حفرة في الأرضية محمولة جواً. ثم إن صوت صافرة إنذار قطعت أجواء القدرية الثقيلة، وقد اندفع الرئيس قرضاي إلى داخل المطار ليناشد الألمان أن يدَعونا نغادر. فرقّوا للحال، وبمساعدة رب النبي*، وصلنا بعد ذلك إلى دبي.

وفي الوقت نفسه، أعلِن أن صفقة خط الأنبوب، التي كانت قد تمت الموافقة عليها في الأصل بين طالبان، وبين إدارة كلينتون وشركة يونوكول، كانت تسير قدماً.[82] وأقيم احتفال مختصر في السفارة الأمريكية في كابل، وحضرها قرضاي، الذي كان هو نفسه قد تفاوض على صفقات خط الأنبوب بوصفه مستشاراً لشركة النفط يونوكول. وكان يرافقه، كالمعتاد، أربعة وعشرون أمريكياً من حراسته الشخصية من القوات الخاصة الأمريكية.[83]

والغزو الأمريكي والبريطاني لأفغانستان في العام 2001 أوصل إلى النهاية الحظر الشامل تقريباً على إنتاج الأفيون الذي كانت طالبان قد أنجزته. وقد وصف لي مساعد في العمل في كابل ذلك الحظر بأنه "معجزة عصرية". وقد ألغيت المعجزة بسرعة. فمكافأة على مساندة "ديمقراطية" قرضاي، سمح الأمريكيون لأمراء حربهم بمعاودة زراعة محصول الأفيون الكلي للبلد في العام 2002. وصارت ثمان وعشرون مقاطعة من أصل اثنتين وثلاثين مقاطعة فوراً تحت الزراعة، وأعيد تأسيس مصانع التنقية. والنتيجة هي أن 87 بالمائة من تجارة العالم في الأفيون الآن تنشأ في أصلها في أفغانستان.[84] والضحايا، اليوم، في معظمهم من الشباب في الغرب. ففي العام 2005، قدر تقرير للحكومة البريطانية أن خمسة وثلاثين ألف طفل في إنجلترا كانوا يستخدمون الهيروين.[85] وفي وقت كتابة هذا النص، روت تقارير إذاعة الأخبار أن فتاة عمرها أحد عشر عاماً في غلاسغو انهارت في مقعدها المدرسي من آثار الهيروين. ولكن التقارير لا تقول إن الطفلة، في كل الاحتمالات، هي ضحية من ضحايا "الحرب على الإرهاب" و"لعبته الكبيرة" في أفغانستان.

* في النص بمساعدة النبي، ولعله سمع ذلك من العامة، وهو ينافي الإيمان. (المترجم)

وبالنسبة إلى الناس العاديين في أفغانستان، كل شيء تغير ولا شيء تغير. فقانون الشريعة وأحكامه الصارمة يجري إعادتها إلى وضعها السابق. فكبير القضاة، فضل هادي شينواري، وهو رجل دين في الثمانينيات من عمره ومن دون أي تدريب في القانون العلماني، قد حكم بأن العروض التلفازية التي تقوم بها نساء يرتدين ملابس محتشمة ويغنين عن الحياة الريفية هي عروض غير شرعية، إلى جانب الأفلام العامة من بوليوود*.[86] ورجع وضع البرقع وشملت الرجعة الجيوب التحررية التي تحررت تحرراً عابراً قصير المدة في كابل.

وفي واشنطون، بعد أن مشى الأفغان "طريق الحرية" (جورج دبليو. بوش) واحتضنوا "نموذجا" للديمقراطية (رونالد رامسفيلد) فهم الآن لا يحظون إلا باهتمام قليل. ومنذ غزو أفغانستان، أسست الولايات المتحدة ثلاث عشرة قاعدة في عشرة بلدان في المنطقة، مع وجود أكثر من ستين ألف من القوات العسكرية في حراسة مسارات خط الأنبوب وطرق بوابات مصادر هذا الوقود المستحاثي. المهمة تحققت، كما يمكن أن يكون بوش قد قال. ويقول تقرير من وكالة الاستخبارات المركزية إن أفغانستان قد استبدلت وحل العراق محلها أرضاً للتدريب من أجل الجيل القادم من "الإرهابيين المحترفين". ولا تحتوي صفحات التقرير التي تصل إلى 119 صفحة على إشارة واحدة إلى الدور القيادي الذي لعبته الولايات المتحدة طوال ربع قرن، في إنشاء هؤلاء "الإرهابيين المحترفين"[87] وتدريبهم.

من بين حكام العالم سقطت نجوم وارتفعت. دوغلاس فييث استقال من وزارة الدفاع، بعد أن وصفه الجنرال تومي فرانكس القائد الأمريكي في أفغانستان والعراق بأنه "أغبى رجل على وجه الأرض"[88]. وعُين بول فولفوويتز رئيساً للبنك الدولي. وقد استخدم جورج بوش مهرباً دستورياً من القرن الثامن عشر، فتجاهل المعارضة التي أبداها مجلس الشيوخ وعين جون بولتون ليمثل أمريكا في الأمم المتحدة التي يكرهها.

* صناعة الأفلام الهندية، وهي على غرار هوليوود. (المترجم)

أفغانستان، التي بدأت فيها "اللعبة الكبيرة" لم تبق بعد اليوم "قصة". والخبر التالي كان خبراً صغيراً في نشرة لهيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي) أذيعت حين كانت هذه الكلمات تكتب:

كشفت القوات العسكرية الأمريكية في أفغانستان عن أن ستة أطفال ماتوا في غارة على مقاتلين مشتبه بهم... وجاءت الأخبار عن الوفيات بعد وقت قصير من قيام الولايات المتحدة بتقديم الاعتذار عن قتل تسعة أطفال في غارة منفصلة في المقاطعة المجاورة... وعلى كل حال، حذرت الولايات المتحدة من أن الإصابات المدنية لن تثنيها عن عزمها وتردعها. وقال ناطق باسم الولايات المتحدة [إن الأطفال الموتى] كانوا هم الملومين إلى حد ما بسبب وجودهم في موقع يستخدمه المقاتلون...[89]

* * *

كتب أخرى بقلم جون بلجر

اليوم الأخير

العاقبة: صراع كمبوديا وفيتنام

(مع أنطوني بارنيت)

الخارجيون

(مع مايكل كورين)

أبطال

بلاد سرية

أصوات بعيدة

جداول عمل خبيئة

الحكام الجدد للعالم

لا تكذب علي: صحافة التحقيق وانتصاراتها.

(محرر)